

مركز الكتاب للنشر





مصر الجديدة : ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة

ت: ٢٩٠٨٢٠٢ - ٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس: ٢٩٠٦٢٥٠

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذينَ قُتلُوا في سَبيلِ اللَّهِ
أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عندَ رَبِّهِمْ يرْزَقُونَ ﴾

صدق الله العظيم

مُقدمة

لازلت أذكر طفولتى فى القرية . .

تلك الطفولة التى تركت فى حياتى بصمات لا تمحى، فقد تفتحت عينى وأنا أرى الناس يحتفون بأولياء الله الصالحين، وإقامة الموالد لهم، حيث تقام حلقات الذكر، ويشدو المنشدون بمناقب الرسول وآل البيت.

ولا زلت أذكر فرحتى الغامرة يوم زف إلىَّ والدى بشرى أن أذهب معه إلى القاهرة، وسوف أرى هناك مشهد الإمام الحسين، والسيدة زينب، يومها سرح خيالى بعيداً، ورسم صورة بالألوان متخيلاً كلا المشهدين . . !

وعندما ذهبت لزيارة ضريح الإمام الحسين فى سنى تلك الصغيرة، والروائح العطرة المنبثقة من مقصورة الإمام الشهيد، والأضواء الخافتة حول الشهيد الحسينى، شعرت بجلال لا يستطيع القلم أن يعبر عنه.

ومرت الأيام ودرست التاريخ الإسلامى دراسة متعمقة، وكانت ثمة علامات استفهام كثيرة تقفز إلى ذهنى، وأنا أرى الأمة الإسلامية فى قمة انتصاراتها، وسفح هزائمها . . وهى فى زهو

التألق، وخفوت السقوط.. وهى تعيش ألق التقدم، وهى تتجرع غصص التخلف.. ولم يكن الإسلام سببا فى تخلفها وانحسار مد ازدهارها، بل كان المسلمون عندما يديرون ظهورهم لقيم الإسلام وعقائده ينحدرن بسرعة إلى السفح، وعندما يعودون إلى هذه القيم والمبادئ تزدهر حضارتهم، ويعلو نجمهم ويسودون الحياة!

وما أكثر ما لاقت الأمة الإسلامية من سبل النجاح وما أكثر ما سقطت أيضا فى بئر الهوآن.

وكان المسلمون دائماً.. وليس دينهم هو السبب فيما وصلوا إليه من هزائم وانكسارات.

واصل الإسلام زحفة الساحق أيام الخلفاء الراشدين فقهروا الفرس وأسقطو امبراطوريتهم، وأوقعوا الهزائم المرة تلو المرة باللامبراطورية الرومانية واقتطعوا منها شعوباً كثيرة.. ثم توقف موج الفتوحات الإسلامية وهو فى أوج تقدمه وازدهاره، واكتساحه الباهر لكل الحواجز التى كانت تقف أمام سيله الجارف.. توقف هذا المد الهائل يوم بدأت الفتنة الكبرى فى نهاية حكم عثمان بن عفان الخليفة الثالث، وسكنت حركة الفتوحات تماما فى الصراع الذى تلا ذلك بين معاوية بن أبى سفيان، ورابع الخلفاء الراشدين على بن أبى طالب.. وكانت المعارك التى خاضها المسلمون ضد المسلمين فى هذه الحرب الأهلية المهلكة التى راح ضحيتها ألوف المسلمين.. فسفكت الدماء.. وارتوت الأرض بأشلاء الضحايا.. وظهرت الفتن والفرق المختلفة.. وأخذ البعض يكفر البعض الأخر..

وأخذ كل فريق يحاول أن يقنع الناس أنه هو الذى على الحق والأخرين على الباطل .

وتحولت الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض على يد خلفاء بنى أمية، عندما ورَّثَ معاوية ابنه يزيد خليفة من بعده. . وظهرت الأطماع، والأطماع تستلزم المؤامرات، والمؤامرات تؤدى إلى الفتن والكوارث. . كل تلك الأمور أبعدت الناس عن جوهر الإسلام الحق. . وعن وسطيته وعظمة تشاريعه ومبادئه، وأخذوا يؤولون حتى أحاديث الرسول، ويخترعون أحاديث كاذبة لتثبيت سلطانهم.

وتغيرت الدنيا . .

أصبحت الدنيا غير الدنيا . .

بعدت عن أيام الرسول وخلفائه الراشدين. . وتكالب الناس على السلطة والجاه والثروة والمال . . وكل هذه الأمور لا تأتى إلا بالزيف والتملق والنفاق للسلطان . .

ووجدنا بأمر السلطة يُلعن (الإمام على) على المنابر!! ووجد من كلاب السلطة من يبيعون الدين بالدنيا ويمشون فى مواكب الأفك والنفاق . .

وحدث ما حدث من أحداث جسام بعد أن تنازل الحسن بن على عن الخلافة لمعاوية على أن يكون الأمر شورى بعده. . ينتخب الناس من يرغبون أن يكون خليفة عليهم . . كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد مات وترك الأمر لاختيار خليفة للمسلمين

أنفسهم. صحيح أنه أمر الصديق أن يصلى بالناس، ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يأمر صراحة بأن يكون هو خليفته، واختاره المسلمون فى سقيفة بنى ساعده، وبايعوه خليفة للرسول صلى الله عليه وسلم.

واختار عمر بن الخطاب ستة ليختار المسلمون من بينهم من يكون خليفة لهم، وتم اختيار عثمان، وقتل عثمان رضى الله عنه مظلوماً، واختير الإمام على رضى الله عنه للخلافة، ولكنه لاقى ما لاقى من صراعات مع معاوية، الذى رفض الانصياع لأمر الإمام بخلعه من ولاية الشام وقاومه بحجة أنه ينادى بالثأر لدم عثمان رضى الله عنه.

ولكن معاوية لم يفعل شيئاً من ذلك لم يترك الأمر شورى بين المسلمين، بل أرغم بالسيف حينا، وباللين والدهاء والسياسة أحياناً أخرى حتى أخذ البيعة لابنه يزيد، على مضض من قادة الرأى من المسلمين.

وكان أن تصدى الإمام الحسين بعد وفاة أخيه الحسن ـ الذى قيل أنه مات مسموماً ـ ليزيد، وكان ما كان من سير الأحداث فى طريقها الدامى التى انتهت إلى ما انتهت إليه من قتل الإمام الحسين وما يتبع ذلك من أحداث جعلت التاريخ الإسلامى يأخذ مسارا جديداً . . وأن يظهر من ينادى بالأخذ بدم الحسين . . ولكن الأمر لم يكن سهلاً ولا هيناً، فقد هيمن الأمويون على الحكم قرابة قرن من الزمان، إلى أن سقطت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية التى حاربت بدورها المطالبين بالخلافة من أولاد على، حتى قامت الدولة

الفاطمية فى المغرب، ثم امتد نفوذها إلى مصر التى وقعت تحت الحكم الفاطمى التى استمد شرعيته كما قال خلفاؤه من انتمائهم لفاطمة الزهراء.

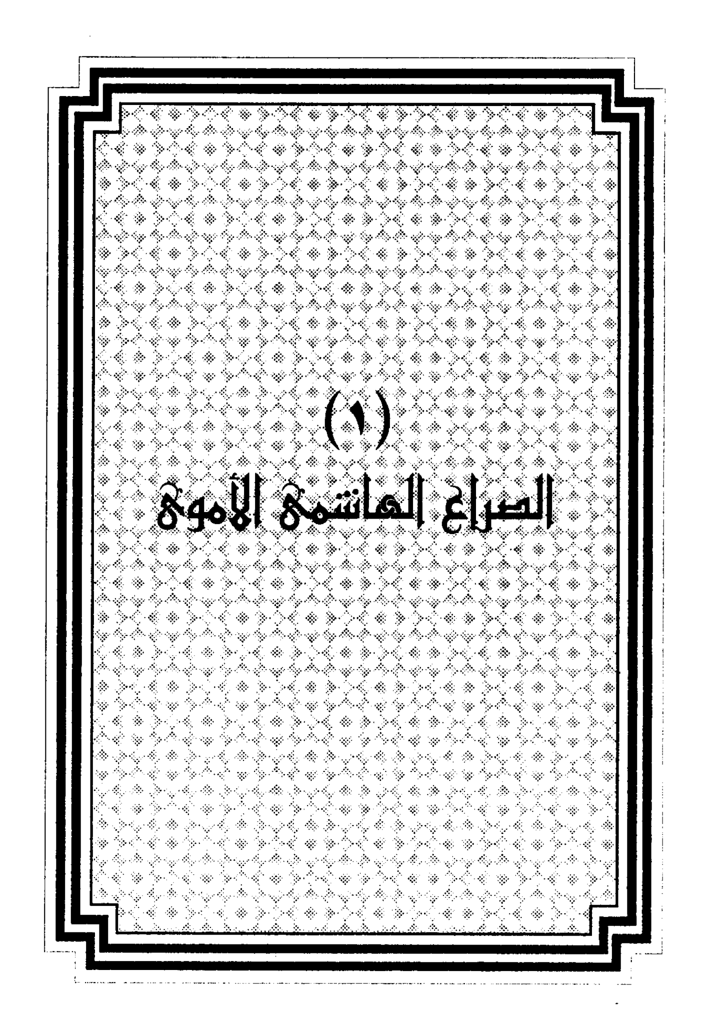
ولازلت أذكر أننى زرت المشهد الحسين فى (كربلاء) عندما كنت فى مهمة صحفية للعراق، وأخذ أحدهم يحدثنا عن موقعة كربلاء التى دارت فى نفس المكان. . وعندما أشار إلى أحد الأمكنة وقال: هنا اجتز رأس الإمام الحسين!

اقشعر بدنى، وراح خيالى يحدق فى المدى . . وتذكرت طفولتى ورؤيتى للمشهد الحسينى فى القاهرة حيث دفن الرأس الشريف، وموقفى فى شبابى أمام المشهد الحسينى فى كربلاء حيث دارت هذه المعركة الشرسة بين الحق والباطل . . بين طلاب الدنيا، ومن قدموا دمهم قرباناً لله. .

وبين الرؤيتين دارت فى رأسى أفكار كثيرة، وعزمت أن أكتب هذه الدراسة عن الإمام الشهيد . . الإمام الحسين. شهيد كربلاء . . وسيد شباب أهل الجنة. .

ومن خلال قراءات متعددة حول الإمام الشهيد، ومن وجهة نظر لرجل سنى محب لآل البيت النبوى. .كانت هذه الدراسة التى بين يديك.

مأمون غريب



(١)
الصراع الهاشمي الأموي

جذور الخلاف بين بنى هاشم وبنى أمية

لم يكن أحد يدرى فى مكة وهى تشاهد النبى عليه الصلاة والسلام يمشى بينهم قبل الرسالة، أنه سيحدث تغيرات هائلة ليس على مستوى مكة وحدها، ولا على مستوى الحجاز وحده، ولكن على مستوى العالم كله .

كانوا ينادونه بالأمين، وكانوا يعرفون أنه نشأ بينهم يتيماً . . مات والده وهو فى بطن أمه. وعاشت أمه حتى بلغ السادسة من العمر، وكفله جده أبو طالب حتى بلغ الثامنة من عمره، وبعدها كفله عمه أبو طالب، وكان كثير العيال . . ومع ذلك فقد أحبه من كل قلبه . . أحبه للظروف التى مرت به، وأحبه لأنه ابن أحب أبنائه إلى قلبه (عبد الله) الذى مات فى ريعان الشباب فى أرض غريبة، ودفن عند أخوال أبيه من بنى النجار فى (يثرب) .

وأحبه أكثر مما وجد فيه من جمال الخلق وحدّة الذكاء، وعزوفه عن الأهواء، فلم يثر انتباهه ماكان يثير من كانوا فى عمره سواء عندما كان طفلاً أو صبياً أو شاباً فى مقتبل العمر .

وأحبته مكة كلها لأخلاقياته الرفيعة، وبعده عن كل ما يعاب .

صحيح أنه نشأ فى بنى هاشم . . وبنى هاشم لهم الزعامة على قريش .

وصحيح أيضا أنه كان هناك صراع بين الهاشميين والأمويين، لأن الأمويين بما لهم من نفوذ فى مكة كانوا يريدون أن تكون لهم السيادة على مكة، وهذا الصراع يمتد جذوره إلى الجدود عندما احتدم التنافس بين هاشم جد الهاشميين، وبين أمية جد الأمويين، حتى أن أمية آثر الخروج إلى الشام وفى نفسه ما فيها من نقمة على الهاشميين.

لم يكن أحد يدرى أن محمد الأمين الذى يسير بينهم ويعمل ليأكل من كد يده، سوف يغير موازين الحياة لا فى مكة وحدها ولكن فى العالم كله.. كان راجح العقل .. لم يسجد لصنم قط.. ولا استهواه عبث الشباب ولكنه كان كثير التأمل .. كثير التفكير .. يريد أن يعرف ويعرف .. ليس أنساب العرب ومفاخرهم.. ولا تراث الأباء والأجداد.. ولكن كان يريد أن يعرف سر الحياة.. ماوراء هذا الكون البديع الفسيح.. حتى فى رحلاته التى قام بها مع عمه أبى طالب إلى الشام وهو مازال فى الثانية عشر من عمره.. كان طوال الرحلة دائم التفكير فى جمال وجلال هذا الكون بجباله وسهوله.. ووديانه وسمائه المزدهرة بالنجوم .. وتاجر فى مال السيدة خديجة.. وربحت تجارته وتزوجها.. وأخذت حياته مساراً آخر.. كان يذهب إلى غار حراء فى رمضان ليتأمل فى الأيام ذوات العدد «الأحد، الاثنين، الثلاثاء، الأربعاء، الخميس».

وجاءته الرسالة.

وحاربته مكة حربا لاهوادة فيها.

البعض حاربه لأنه جاء بشئ غير مألوف لديهم، ولتقديسهم ما كان يعبد الآباء والأجداد .. فقد جاءوا إلى الحياة ورأوا أباءهم يقدسون عبادة الأوثان، ويقدسون البيت الحرام الذى بناه إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل ، فما بال محمد بن عبد الله يدعوهم إلى نبذ عبادة الأصنام، وإن كان يعظم بيت الله الحرام..

لم يستمعوا إليه وهو يخبرهم بضرورة تطهير بيت الله الحرام من الأوثان، ولم يكن خليل الرحمن يعبد أصناما ولكنه حطم الأصنام، ودعا إلى عبادة الله الواحد برءاً من كل شرك.. وعندما تزوج من هاجر (المصرية) وجاء بها إلى هذا المكان.. أقام قواعد هذا البيت بعد أن اشتد عود ابنه إسماعيل ليكون مثابة للناس وأمنا، ولكن الناس نسوا رحيق الرسالة التى جاء بها إبراهيم الخليل وتمسكوا بعبادة الأصنام التى امتلأ بها بيت الله الحرام.. وجاء محمد عليه الصلاة والسلام ليخبرهم بسفاهة ما يعتقدون فكان عليهم أن يثوروا على من جاء يُسفه عقول الأباء والأجداد، وكان على بنى أمية أن يحاربوا الدعوة الجديدة خوفا من أن ترفع الرسالة التى جاء بها واحد من بنى هاشم من قدر بنى هاشم.. وتكون لهم السيادة على قريش والعرب.

وحاربها أيضا بعض القبائل التى وجدت فيها بجانب هدمها للمعتقدات التى ألفوها سيادة لبنى هاشم عليهم، ووأدا لتطلعاتهم.

وسرعان ما انتصر الإسلام، وساد الجزيرة العربية كلها، ولم يكن فى استطاعه أبو سفيان بن حرب ولا غيره أن يوقف زحفه الكاسح.. فأسلم أبو سفيان عندما تم فتح مكة.. ربما ليكون له دور فى الحياة الجديدة.. ولكن ظل فى قلبه الكثيرة على النبى وبنى هاشم.. وظل النبى يتألفه حتى يصفى ما فى نفسه من أحقاد، حتى أنه فى ذات يوم نظر إلى النبى طويلاً وهو يدخل المسجد، وكان يقول فى نفسه كيف انتصر عليه وغلبه؟!

ولاحظ الرسول عليه السلام ذلك.. فأقبل عليه حتى ضرب بيده بين كتفيه.. وهو يقرأ مادار فى رأسه من أفكار وقال له:

- بالله غلبتك يا أبا سفيان!

ومع أن النبى عليه الصلاة والسلام تزوج ابنته (أم حبيبة) وهو بالحبشة. عندما ارتد زوجها عن الإسلام، تكريما لجهادها فى الغربة، وأنه بنى بها عندما عادت من الحبشة إلى المدينة، إلا أن أبو سفيان ظل يضمر فى نفسه الغيرة من بنى هاشم، وما رفعهم به الإسلام إلى قمة سامقة لايمكن أن يتطاول إليها رجل فى مكة كلها!

وانتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى بعد أن اجتاح الإسلام شبه الجزيرة العربية كلها، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً، وبعد أن جابه المسلمون الرومان أقوى قوى العالم فى هذا العصر فى تبوك

بقيادة الرسول عليه الصلاة والسلام بنفسه ولم يقو الرومان على مجابهته وآثروا السلامة والصلح معه . . وبعد ذلك فى (مؤته).

شاهد أبو سفيان ذلك، وقد بهرته الصوره، وهزته الانتصارات التى حققها الإسلام ، وإن كان يراها قد حققها بنو هاشم!!

وجاءت فرصته بعد رحيل الرسول عليه الصلاة والسلام إلى أكرم جوار، أو هكذا خيل إليه أن يجد فرصة يبرز فيها بين الصفوف ويبحث لنفسه عن دور!

فقد بويع أبو بكر الصديق بالخلافة بعد أحداث السقيفة . . وجاء أبو سفيان بن حرب إلى على بن أبى طالب وعمه العباس، يريد أن يحدث انشقاقا فى الصفوف، فقد كان يرى أن هذا الأمر (الخلافة) آل إلى أذل بيت فى قريش!

قال لهما:

يا علىٍّ . . وأنت يا عباس . . مابال هذا الأمر فى أذل قبيلة من قريش وأقلها . . والله لو شئت لأملأنها عليه خيلا ورجالاً وأخذتها عليه من أقطارها.

وفطن علىٍّ والعباس إلى قصد سفيان بن حرب . . وأنه لايريد إلا الفتنة، فليس من المعقول وتاريخ التنافس بين الهاشميين والأمويين معروف أنه يريد أن تؤول الخلافة إلى بنى هاشم . . ولكنها المكيدة والصيد فى الماء العكر . . فرد عليه على بن أبى طالب:

- لا والله لا أريد أن تملأها عليه خيلا ورجالاً ولولا أننا رأينا أبا بكر لذلك أهلاً ما خليناه وإياها.

وكأن عليا رضى الله عنه يريد أن يلقنه درساً ، بأن الإسلام له مبادئه وقيمه وأخلاقياته التى يجب ألا تغيب عنه، وأنه لا مكان للنفاق والغش بين من يؤمنون بالدين الحنيف فقال له:

- يا أبا سفيان .إن المؤمنين قوم نصحة بعضهم لبعض ، وأن المنافقين قوم غششة بعضهم لبعض متخاونون وإن قربت ديارهم وأبدانهم.

ولم ينس العباس لأبى سفيان موقفه، عندما خرجا سويا، ونظرا على بعد فإذا بجيوش المسلمين تملأ الساحة تأهباً لفتح مكة، وأيقن يومها أبو سفيان، أنه من المستحيل على قريش مجابهة جيش المسلمين، وأن الهزيمة ستحيق بمكة لو فكرت فى التصدى لجيش الرسول . . أيقن يومها انتصار محمد عليه الصلاة والسلام وصحبه. ساعتها توجه أبو سفيان بالكلام إلى العباس قائلاً:

لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً. . كان يرى فى ذلك ملكاً، وليس دينا جاء ليبشر بالقيم النبيلة ، والشريفة، نورا يضئ للناس حياتهم فى دنياهم وما بعد دنياهم .

يومها لقنه العباس درسا عندما قال له: إنها النبوة. . !

ورد أبو سفيان مداهنا: نعم إذن.

وتألفه الرسول بأن أعلن أن من يدخل البيت الحرام من أهل مكة

فهو آمن، ومن لزم بيته فهو أمن ، ومن دخل بيت أبى سفيان فهو آمن . !

ولم يجد الرجل مفرا من الإسلام .

ولم تجد زوجته هند بنت عتبة التى حرضت على قتل الحمزة ابن عبد المطلب عم الرسول عليه السلام يوم أحد، حتى قتل، وبقرت بطنه وأكلت كبده تشفياً فيه لقتله أباها وعمها فى معركة بدر . . لم تجد أمامها هى الأخرى وقد دخلت مكة فى الإسلام إلا أن تعلن إسلامها . . على مضض . . كما دخل ابنها معاوية الإسلام .

ومضت الأيام وانتشر نور الإسلام فى كل أنحاء الجزيرة، وتطلع الرسول إلى أن ينتشر نور الإسلام فى العالم كله، لأنه جاء رسولاً للدنيا كلها . . ومن هنا كانت رسائله لملوك العالم وأمرائه للدخول فى الإسلام . . ومن هنا كانت المواجهة فى عهد الرسول بينه وبين الروم فى تبوك بقيادة الرسول نفسه، ثم بعد ذلك فى مؤته .

وكانت هذه هى أول المواجهات مع أوربا ممثلة فى دولة الروم وانتقل الرسول الكريم الى أكرم جوار .

وخلفه أبو بكر الصديق الذى استطاع بقوة إيمانه أن يقضى على المرتدين ومانعى الزكاه،وأن يوجد المسلمين تحت راية واحدة، وأن يبدأ بمواجهة القوى العظمى فى عصره (الفرس والرومان) .

كان الجهاد فى سبيل الله ذروة الأمانى للمسلمين فانطلقت الجيوش الإسلامية لتواجه أعظم قوى عصرهم بإيمان عميق بالهدف

الذى يسعون إليه. . وهو نشر نور الإسلام فى كل مكان. . والقضاء على المظالم. . وهذا ما بدا واضحاً فى عهد الفاروق عمر بن الخطاب الذى استطاع أن يحقق انتصارات مذهلة فبقضائه على الإمبراطورية الفارسية، وانتصاره على الروم وضم الشام ومصر إلى الراية الإسلامية. . أصبحت هناك تطلعات إلى أن يغزو الإسلام كل مكان للشرك والضلال. . فى مثل هذه الظروف . . وفى وهج الانتصارات الإسلامية اختفت العداوات القبلية وخبت نارها. . وإن كان مازال لها وبيص تحت التراب . .

اكتفى الأمويون أن يكون لهم دور فى الدولة الإسلامية وخاصة عندما أتيحت لمعاوية أن يصبح واليا على الشام فى زمن عمر بن الخطاب. . حيث بدأ يقوى نفوذه هناك . . وبدأ نفوذ بنى أمية فى التألق. . فإن كانوا فى الجاهلية كان لهم دور فى قيادة الجيوش، وبنى هاشم لهم شرف رفادة الحجاج وسقايتهم، فإنهم اليوم عادوا فقفزوا قريباً من السلطة وإن كان أملهم فى الخلافة نفسها صعب المنال. . لأن هناك كبار الصحابة الذين كان لهم دورا ملموسا فى الدعوة، وهناك علىٍّ بن أبى طالب صاحب المواقف المشهودة فى الدفاع عن الإسلام بجانب مركزه المرموق وعلمه الغزير واستشارة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب له فى كثير من الأمور . . بكل ذلك جعل الأمويون يرون أنهم ليسوا فى الطليعة. .

ولكن الفرصة أتحيت لهم عندما تولى الخلافة عثمان بن عفان

وهو واحد منهم، بعد استشهاد عمر رضى الله عنه.. فقد أغدق على بنى أمية وقربهم منه.. ووطد نفوذ معاوية فى الشام.

وكان عثمان رضى الله عنه محبوباً فى أول عهده بالحكم، فقد كان لين الجانب.. شديد الحياء.. شديد السخاء.. وهو على حد تعبير جلال الدين السيوطى فى تاريخ الخلفاء:

«هو أول من أقطع القطائع، وأول من حمى الحمى، وأول من خفض صوته بالتكبير، وأول من أمر بالأذان الأول فى الجمعة، وأول من رزق المؤذنين، وأول من ارتج فى الخطبة، وأول من قدم الخطبة فى العيد على الصلاة، وأول من فوض إلى الناس إخراج زكاتهم، وأول من ولى الخلافة فى حياة أمه، وأول من اتخذ صاحب شرطة، وأول من اتخذ المقصورة فى المسجد خوفا من أن يصبه ما أصاب عمر، وأول ما وقع فى عهده الاختلاف بين الأمة فخطأ بعضهم بعضا فى زمانه فى أشياء نقموها عليه، وأول من هاجر إلى الله بأهله، وأول من جمع الناس على حرف واحد فى القراءة، وأول منكر ظهر بالمدينة فى عهده حين فاضت الدنيا».

بهذا الإيجاز لخص الإمام السيوطى حياة الخليفة الثالث، الذى ظهرت الفتنة فى عهده، والتى انتهت بحياته.. فقد قتل على حد تعبير الإمام السيوطى مظلوماً.. ومن قتله كان ظالما، ومن خذله كان معذوراً».

وعندما آل الحكم إلى علىٍّ بن أبى طالب، رفض معاوية مبايعته

بحجة تقاعسه عن دم عثمان، وتشبث بحكم الشام ورفض الخلع، وكان ما كان من صراع بينه وبين معاوية، والذى انتهى بإحكام قبضة معاوية على الحكم بعد استشهاد علىٍّ كرم الله وجه على يد أحد الخوارج وهو عبد الرحمن بن ملجم.

ويروى الرواة قصة الدافع وراء هذه الجريمة البشعة التى أنهت حياة الإمام علىٍّ رضى الله عنه . . والقصة تقول أن عبد الرحمن ابن ملجم كان قد أحب امرأة من الخوارج اسمها (قطام) . . وأن أباها وأخاها قتلا على يد الإمام علىٍّ فى معركة (النهروان) . . وعندما عرفت مدى حب ابن ملجم لها اشترطت عليه أن يكون مهرها ثلاثة آلاف درهم، وقتل الإمام علىٍّ. . وقد فعل الرجل فعلته بهذا الدافع، وقد عبر الشاعر الفرزدق على هذه الحادثة بقوله:

فلم أر مهرا ساقه ذو سماحة
كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينة
وضرب علىٍّ بالحسام المصمم
فلا مهر أغلا من على وإن غلا
ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

وقد أخذت الأحداث بعد ذلك شكلاً مثيرا ومخيفاً . .

كان من الطبيعى أن يخلف الإمام علىٍّ فى الخلافة الحسن ابن علىٍّ . .

وقد بايعه بالفعل أهل الكوفة.

وكان الحسن مسالما .. يكره الحروب، ويؤثر السلام، وأراد أن يضع حداً لأنهار الدماء التى جرت على الساحة الإسلامية منذ الفتنة الكبرى فى عهد عثمان، إلى المعارك الطويلة بين علىٍّ ومعاوية.. فآثر السلام وحقن الدماء، وكان الحسن فى السابعة والثلاثين من عمرى .. وقد بعث برسالة إلى معاوية يعرض عليه السلام ، وأن يكون له الأمر من بعده كما يقول الإمام السيوطى، أو أن يصبح الأمر شورى يختار المسلمون من يشاءون للخلافة فى أقوال أخرى، كما طالبه بأن يقض ديونه ولا يطالب أهل الحجاز والعراق بما كان يطالبهم به أيام الإمام علىٍّ ، وقد استجابة معاوية لهذه المطالب.

وبذلك تحقق ما قاله النبى عليه الصلاة والسلام للحسين «يصلح الله به بين فئتين من المسلمين».

وكان تنازله عن الخلافة فى سنة إحدى وأربعين، واختلفوا فى شهر التنازل فقيل: كان ذلك فى شهر ربيع الأول، والبعض قال ربيع الآخر، والبعض الثالث قال كان فى جماد الأولى.

مهما يكن من شئ فقد تنازل الحسن للخلافة لمعاوية وهكذا آل الحكم إليهم .

وتقول الروايات.. ومنها رواية للإمام السيوطى: أن يزيد بن معاوية وعد زوجته (جعده بنت الأشعث) أن يتزوجها بعد أن تضع السم للحسن فى طعامه، وأنها قد نفذت هذه المؤامرة، وأنه بعد وفاة الحسن بعثت إلى يزيد ليفى بوعده فقال لها:

- إنا لم نرضك للحسن، أفنرضاك لأنفسنا؟

وكان الدافع وراء ذلك هو أن الحسن كان اشترط أن يتنازل عن الخلافة بشرط أن تئول إليه بعد وفاة معاوية، فأراد يزيد أن يتخلص منه ببث السم فى طعامه عن طريق الجعدة بنت الأشعث. !

الخلاصة أنه بتنازل الحسن لمعاوية عن الحكم قد مكّن لبنى أمية أن يكونوا هم أصحاب النفوذ الأول فى الامبراطورية الإسلامية التى تكونت فى عهد الخلفاء الراشدون الثلاثة لأنه لم يحدث توسع إسلامى فى خلافة الإمام علىّ الذى انشغل فى الصراع مع معاوية، وأنه قد أصبح معاوية صاحب النفوذ. وكان معاوية قوياً.. لين الجانب، سياسى داهية.. حتى قيل عنه:

تعجبون من دهاء هرقل وكسرى وتدعون معاوية؟

وقال عنه أحدهم:

صحبت معاوية ، فما رأيت رجلاً أثقل حلما ولا أبطأ جهلاً ولا أبعد أناة منه.

وقد عين معاوية حاكما للمدينة مروان بن الحكم.

كما اختار المغيرة بن شعبة لإمارة الكوفة وكان المغيرة هذا شديد الدهاء .

واختار زياد بن أبيه - الذى ألحقه بنسبه- وأصبح زياد بن أبى سفيان أميراً للبصرة. والذى امتد نفوذه إلى جنوب فارس حتى نهر

السند.. وظل حاكما عليها حتى تولى بجانب ذلك حكم الكوفة بعد وفاة المغيرة. ورغم أن زياد ابن أبيه كان يعمل لحساب عليٍّ بن أبى طالب، إلا أنه انتقل إلى أشد المعادين له، بعد الحاق نسبه بأبى سفيان!

وقد استطاع بشدته التى لا تعرف الرحمه أن يسوس الناس.

ولعل الأستاذ بيرنارد لويس فى حديثه عن العرب فى التاريخ قد رسم صورة قريبة من الواقع لعهد معاوية بقوله:

كان الموقف يعرض صعوبات عدة، عند ارتقاء معاوية سدة الخلافة.

فلقد أدى مصرع عثمان إلى تحطيم تلك الأصول الدينية التى ربطت الخلفاء الأول إلى الناس، وبات لزاما على معاوية أن يجد قاعدة جديدة تقوم عليها الامبراطورية. وكان الحل الذى وجده هو التحول من الدولة الدينية الإسلامية إلى الدولة العلمانية العربية. ولم يكن معاوية دائب القيادة لقومه، ولكنه كان بارعاً فى إدارتهم عن طريق الإقناع والكفاية الشخصية.

ولكن كيف أخذ معاوية البيعة ليزيد؟

أن أصلح الروايات التى قيلت فى ذلك ملخصها أن المغيرة بن شعبة قد أحس أن معاوية يريد أن يعزلة من إمارة الكوفة، فأراد أن يتملقه، واقترح عليه أن يأخذ البيعة لابنه يزيد.

قال ليزيد بن معاوية:

لقد ذهب أعيان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبراء قريش وأشرافهم، وإنما بقى أبناؤهم وأفضلهم وأحسنهم رأيا وأعلمهم بالسنة والسياسة، ولا أدرى ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة؟!

قال يزيد:

- أترى ذلك يتم؟

قال : نعم

وأخبر يزيد والده بما اقترحه المغيرة، وعندما أحضره معاوية سأله عن اقتراحه بتولية يزيد الخلافة بيعة، فقال المغيرة له:

قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان وفى يزيد منك خلف، فاعقد له فإن حدث بك حادث كان كهفا للناس وخلفا منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة .

قال معاوية : ومن لى بذلك ؟

قال: اكفيك أهل الكوفة، ويكفيك زياد أهل البصرة، وليس بعد هذين المصريين أحد يخالفك . .

أعجبت الفكرة معاوية، وقال للمغيرة!

ارجع إلى عملك وتحدث مع من تثق به فى ذلك وترى ونرى.

وعندما عرض الأمر على زياد نصحه بأن يتريث قليلاً، وأخذ معاوية بنصيحته، إلا أن الفكرة ألحت عليه بعد وفاة زياد وأرسل

إلى عامله فى المدينة مروان بن الحكم برغبته فى ذلك، إلا أنه قامت معارضة لهذه الفكرة من أبناء الصحابة وعلى رأسهم الحسين بن علىٍّ، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبى بكر وغيرهم. . وكانت وجهة نظرهم أن الخلافة بذلك تتحول إلى هرقلية.

ولم يكن من الصعب على معاوية أن يأخذ بيعة أهل الشام والعراق لابنه يزيد، وتوجه بعدها إلى الحجاز مع عدد كبير من جيش الشام ليأخذ البيعة لابنه، وكان أعلام أبناء الصحابة قد توجهوا إلى مكة.

ويلخص الأستاذ خيرى حماد ما جرى بعد ذلك بقوله:

وكان المعارضون قد تركوا المدينة إلى مكة فخرج معاوية وقضى بها نسكه، ثم جمعهم وكانوا قد اتفقوا على أن يكون الذى يخاطبه ابن الزبير فقال لهم معاوية:

قد علمتم سيرتى فيكم وصلتى لأرحامكم وحملى ما كان منكم، ويزيد أخوكم وابن عمكم وأردت أن تقدموه باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتأمرون وتجبون المال وتقسمونه لايعارضكم فى شئ من ذلك »

فقال ابن الزبير:

نخيرك بين ثلاث خصال.

قال: اعرضها.

قال: تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض ولم يستخلف أحدا فارتضى الناس أبا بكر.

قال معاوية :

ليس فيكم مثل أبي بكر.

قال عبد الله:

وأنه عهد إلى رجل من قاصية قريش ليس من بنى أبيه فاستخلفه، وإن شئت فاصنع كما صنع عمر جعل الأمر شورى فى ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا بنى أبيه .

قال معاوية:

هل عندكم غير هذا؟

فقالوا : لا.

قال :فإنى أحببت أن أتقدم إليكم أنه قد أعذر من أنذر، إنى كنت أخطب فيكم فيقوم إلى القائم منكم فيكذبنى على رءوس الناس فأحمل ذلك فأصفح، فإنى قائم بمقاله فأقسم بالله لئن رد على أحد منكم كلمة فى مقامى هذا لاترجع إليه كلمة حتى يسبقها السيف إلى رأسه فلا يبقين رجل إلا على نفسه.

ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال: أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين مع كل واحد سيف، فإن ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما.

ثم خرج وخرجوا معه حتى رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

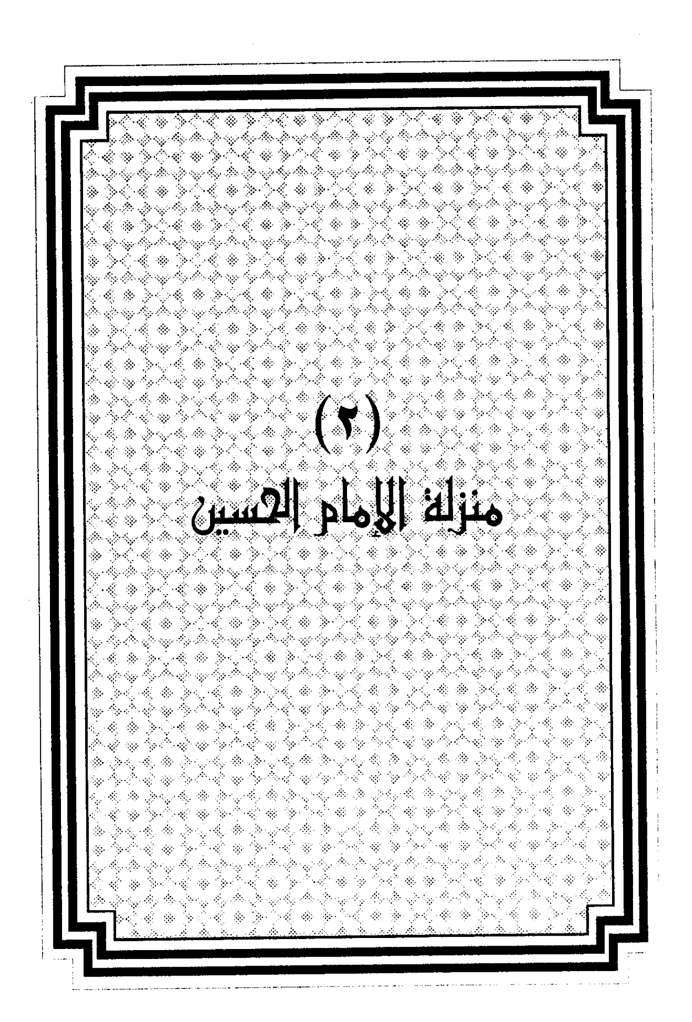
إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبت بأمر دونهم ولا يقضى إلا عن مشورتهم، وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوا ليزيد على اسم الله (فبايع الناس وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر ثم ركب راحلته وانصرف إلى المدينة ثم إلى الشام.

ويروى أن ابن عمر قال لمعاوية:

أبايعك على أن أدخل فيما تجتمع عليه الأمة فوالله لواجتمعت على جيش لدخلت معها..

وبهذا المكر.. وهذا الدهاء.. وباللين والقوة.. استطاع معاوية أن ينتزع الخلافة انتزاعاً لابنه يزيد ، وليحول الخلافة إلى ملك عضوض.

وانتقل معاوية إلى رحاب الله فى عام ٦٨٠م، بعد أن أخذ البيعة إلى يزيد.. ولكن الأمور لم تكن تسير على هوى بنى أمية، فقد تصدى الحسين له.. وسارت الأحداث فى طريق آخر.. طريق ملئ بالدموع والضحايا.. والشهداء .


(٢)
منزلة الإمام الحسين

لا شك أن الإمام الحسين له مكانة كبيرة فى قلوب الناس وعقولهم، فهو حفيد الرسول عليه الصلاة والسلام، وابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله، وأبوه علىّ بن أبى طالب صاحب المواقف المشهودة مع رسول الله، والذى قال عنه الرسول:

«أنت منى بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبى بعدى».

وكان الحسين قريبا إلى قلب رسول الله، وعندما ولد سماه أبوه (حربا) وغيّر النبى اسمه إلى الحسين.

وهناك أحاديث كثيرة تشيد بالحسين، ومدى حب الرسول له، فقد عاش الحسين خمس سنوات فى ظل النبوة.. وكثيرا ما كان يحمله الرسول على ظهره، وكثيرا ما كان هو وأخوه الأكبر الحسن يقفزان على ظهر الرسول الكريم أثناء سجوده، فيطيل السجود حتى ينزلا من على ظهره.

وقد ولد الحسين فى شهر شعبان من السنة الخامسة للهجرة على أرجح الأقوال، وسعد به الرسول.

ويقول الرواه أن السيدة أم الفضل بنت الحارث رأت فى منامها أن فى بيتها طرفا من رسول الله، فذهبت إلى رسول الله ليفسر لها هذه الرؤيا.. فقال لها.. هو ذاك.. فولدت فاطمة حسينا فأرضعته أم الفضل حتى فطم.

وقد أمر الرسول بحلق رأس الحسين، وتصدق بزنته فضة وكان من حبه له يكثر من مداعبته .. وكثيرا ما كان يضع يده الشريفة فى

فمه ليمتصها. . وكثيرا ماكان يغذيه بلسانه . وكان يخشى عليه هو وأخوه الحسن من الحسد، فكان يعوذهما قائلاً:

«أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامه، ومن كل عين لامة».

وقال عنه عليه الصلاة والسلام أيضاً:

«حسين منى وأنا من حسين».

وقد تربى الحسين فى ظل بيت النبوة. . وتعلم كيف يكون عليه دينه، وكيف يعامل الأخرين على ضوء تعاليم الإسلام، فشرب العلم من جده ومن أمه فاطمة الزهراء، ومن والده الذى قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«أنا مدينة العلم وعلىٌّ بابها».

وقد نصحه والده الإمام علىٌّ رضى الله عنه بقوله فى خطبة طويلة يحثه فيها على ما ينبغى أن يكون عليه كشخص يراقب الله فى سره وعلانيته، ويراقب الناس فى خَلْقَه، ويبصره بالتجارب التى استفاد منها فى حياته. . ومن هذه النصائح الغالية التى استوعبها الإمام الحسين بلا شك قول الإمام علىّ لولده:

«يابنى أوصيك بتقوى الله عز وجل فى الغيب والشهادة، وكلمة الحق فى الرضا والغضب، والقصد فى الغنى والفقر، والعدل فى الصديق والعدو، والعمل فى النشاط والكسل، والرضا عن الله تعالى فى الشدة والرخاء .

يا بنى . . ما شر بعد الجنة بشر، ولا خير بعده النار بخير، وكل نعيم دون الجنة محقور، وكل بلاء دون النار عافية.

واعلم يا بنى أن من أبصر عيب نفسه شغل عن غيره، ومن تعد من لباس التقوى لم يستتر بشئ من اللباس أبدا، ومن رضى بقسم الله تعالى لم يحزن على ما فاته، ومن سل سيف البغى قتل به، ومن حفر بئراً لأخيه وقع فيها، ومن هتك حجاب غيره انكشفت عورات بيته، ومن نسى خطيئته استعظم خطيئة غيره، ومن كابد الأمور عطب، ومن اقتحم الغمرات غرق، ومن أعجب برأيه ضل، ومن استغنى بعقله ذل، ومن تكبر على الناس ذل، ومن سفه عليهم شتم، ومن دخل مداخل السوء اتهم، ومن خالط الأنذال حقر، ومن جالس العلماء وقر، ومن فرح استخف به، ومن أكثر من شئ عرف به ، ومن كثر كلامه كثر خطؤه، ومن كثر خطؤه قل حياؤه، ومن قلَّ حياؤه قلَّ ورعه، ومن قلَّ ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار».

إلى آخر هذه النصيحة الغالية التى ركز فيها الإمام علىٌّ على الفضائل الإنسانية، ونهى فيها عن الرذائل التى تفقد الإنسان وزنه فى دنيا الناس. والذى اختتمها بقوله:

«واعلم يا بنى. . من لانت كلمته وجبت محبته، ومن لم يكن له حياء ولا سخاء فالموت أولى به من الحياة. . لاتتم مروءة الرجل حتى لايبالى أى ثوبين لبس، ولا أى طعاميه أكل .

وفقك الله لرشده، وجعلك من أهل طاعته بقدرته إنه جواد كريم»

كل هذه القيم والشمائل التى تربى عليها الإمام الحسين، جعلت منه إنسانا متكاملاً فى أخلاقه .. صاحب شخصية قوية آسرة، محبوبا من الناس..

كان الإمام الحسين.. تقيا.. بليغاً،، نقيا.. صاحب مروءة.. محبا للخير.. عزوفاً عن الشر، فقيهاً فى أمور دينه، جوّادا كجده العظيم، بجانب وسامته الفائقة، فقد كان شبيهاً بجده عليه الصلاة والسلام.

وقد وصف معارضوه الحسين بأن جسده كان شبيها بجسد رسول الله، بينما كان وجه الحسن يشبه وجه الرسول عليه السلام.

وما أكثر ما قاله الرواه عن شخصية الحسين المحبوبة من الناس وما أكثر ما ساقوه عن تواضعه وهيبته وقوة منطقة وما أكثر الروايات التى ساقها الرواه عن مدى احترام الصحابة وأبناء الصحابة لشخصية الحسين.

الرواة يرون مثلاً عن فصاحته وبلاغته فيسوقون مثلا عن حديثه لأبى ذر رضى الله عنه الذى هاجم الترف الذى يعيش فيه معاوية وبنى أمية، فنفاه معاوية عندما كان واليا على الشام، ونفاه الخليفة عثمان بن عفان من المدينة، فقال الحسين للصحابى الجليل المغلوب على أمره:

يا عماه.. إن الله قادر أن يغير ما قد ترى، والله كل يوم فى شأن.. وقد منعك القوم دنياهم ومنعتهم دينك، وما أغناك عما منعوك وأحوجهم إلى ما منعتهم، فأسأل الله الصبر والنصر، واستعذبه من الجشع والجذع، فإن الصبر من الدين والكرم. وأن الجشع لا يقدم رزقا والجزع لا يؤخر أجلاً».

هذه الكلمات اللغوية الرائعة التى تنبئ عن عقليه متفتحه واعية.. قالها الإمام الحسين وكان عمره ثلاثين عاماً !

ويروى الرواة عن جوده وكرمه الكثير ومن ذلك أن أسامة بن زيد أقعده المرض، وذهب الإمام الحسين لزيارته فوجده شديد الحزن، لا لخوفه من الموت، ولكن لأن عليه دينا يخشى أن يموت دون أن يقدر على سداده، وكان الدين ثقيلاً على أسامة، فسدده الإمام الحسين حتى يلقى أسامة وجه ربه وهو قرير العين والفؤاد.

وقد ساق الرواة حادثة طريفة تبين علمه وجوده وحبه للمعرفة والتبسط مع الناس، ومعاملة كل على قدر عقله.

جاءه أعرابى فى حاجة، فلما سأله عنها كتب الأعرابى حاجته على الأرض.

هنا داعبه الإمام الحسين، وقال له: سمعت أبى يقول المعروف بقدر المعرفة فأسألك عن ثلاث مسائل إن أجبت على واحدة فلك ثلث ماعندى، وأن أجبت على اثنتين فلك ثلثا ما عندى، وأن أجبت على الثلاثة فلك كل ما عندى، وقد حُملت إلىَّ (صرة) من العراق . فقال الأعرابى: سل ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فقال الإمام الحسين:

أى الاعمال أفضل؟

الإيمان بالله.

ما نجاة العبد من الهلكة؟

الثقة بالله.

مايزين المرء؟

علم معه حلم.

فإن أخطأه ذلك؟

مال معه كرم.

فإن أخطأه ذلك؟

فقر مع صبر.

فإن أخطأه ذلك؟

صاعقة تنزل من السماء فتحرقه

فضحك الإمام الحسين وأعطاه الصره.!

وإذا كان الحق ما شهد به الأعداء، فقد كان معاوية يعرف للحسين قدره، حتى قال أنه لا يجد فيه ما يعيبه، حتى أن رجلا سأل معاوية أين يجد الحسين؟

فقال معاوية:

إذا دخلت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيت حلقة فيها قوم كأن على رؤوسهم الطير، فتلك حلقة أبى عبد الله الحسين.

ويروى الرواة عن سخائه، وكرمه وجوده، وحسن معاملته للناس، كما يتحدثون عن كثرة صيامه وصلاته، وأنه حج خمسا وعشرين مرة ماشيا على قدميه وكان دعاؤه فى الحج وهو يمسك الركن الأسود:

إلهى :أنعمتنى فلم تجدنى شاكرا، وابتليتنى فلم تجدنى صابرا، فلا أنت سلبت النعمة بترك الشكر، ولا أدمت الشدة بترك الصبر.

إلهى: ما يكون من الكريم إلا الكريم.

وإذا كان الدعاء هو مخ العبادة، فقد كان الإمام الحسين شديد التضرع إلى الله كثير الدعاء.. لأن الدعاء يقرب بين الإنسان وربه.. لا يجعل بين الله وعباده حجاب.. إن الإنسان يشعر وهو يرفع يديه إلى السماء، ويناجى خالقه أن الله برحمته وجلاله ورأفته معه.. فتستكين النفس، وتطمئن الروح.. ويتوافق الإنسان فيما بينه وبين نفسه، فتعود إلى النفس صفاءها، طمأنينتها.. لا يهمها ما تواجهه من صعوبات الحياة .. وكان من أدعيته التى رواها عنه الرواة دعاؤه عندما يكون فى عرفة.. كان كثير الدعاء يدعو بقلب خاشع.. ومما كان يدعو به.

«اللهم اجعل غنائى فى نفسى، واليقين فى قلبى، والإخلاص فى علمى، والنور فى بصرى، والبصيرة فى دينى، ومتعنى بجوارحى، واجعل سمعى وبصرى الوارثين منى، وانصرنى على من ظلمنى، وأرنى فيه ثأرى ومأربى وأقر بذلك عينى.

اللهم اكشف كربتى واستر عورتى، واغفر لى خطيئتى، واخسأ شيطانى، وفك رهانى، واجعل لى الدرجة العليا فى الآخرة والأولى.

اللهم لك الحمد كما خلقتنى فجعلتنى سميعا بصيراً ولك الحمد كما خلقتنى فجعلتنى سويا، رحمة بى وقد كنت عن خلقى غنياً.

وكان من دعائه أيضاً:

اللهم أوسع على من رزقك الحلال، وعافنى فى بدنى ودينى وآمن خوفى واعتق رقبتى من النار.».

وما أكثر الأدعية التى وردت عنه وتدل على نفس بالغة الصفاء.. بالغة الشفافية.. تريد ما عند الله لا ما عند الناس.

ومن أجل كل هذه الصفات والشمائل التى كان يتمتع بها الإمام الحسين، كان قريبا إلى قلوب الناس.. وكان يذكرهم بنبيهم العظيم، كلما استمع إلى عظة من عظاته، أو خطبة من خطبه، أو مجلس علم يجلس فيه فى مسجد جده العظيم يلقى دروسه، فإذا الناس تستمع إليه وكأن على رءوسهم الطير.. فهم منتبهون إلى كل كلمة يقولها.. أليس هو سليل بيت النبوة الطاهرة؟! وغصن الدوحة المباركة.

مر يوما على جماعة فى مسجد جده عليه الصلاة والسلام وكان فيهم عبد الله بن عمرو بن العاص، وعندما اشرأبت الأعناق نحو الإمام الحسين، قال عبد الله بن عمرو لهم :

ألا أخبركم بأحب أهل الأرض إلى أهل السماء ؟

قالوا: بلى .

قال : هذا الماش . . وأشار إلى الإمام الحسين!

شخصية لها كل هذا الجلال وهذا العلم الذى ورث بعضه عن جده العظيم نبى الإسلام محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، وورث بعضه عن أمه فاطمة الزهراء، فقد رويت على لسانه بعض الأحاديث التى سمعها من رسول الله ، والتى سمعها من أمه ومن أبيه.

ومن هذا مثلاً أنه روى عن أبيه وصفه للنبى عليه السلام فى جلساته فقال :

كان رسول الله دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخّاب ولا فحّاش، ولا عيّاب ولا مشاح، يتفائل عما لا يشتهى ولا يؤيس منه، ولا يخيب فيه، فقد ترك نفسه من ثلاث: المراء. . والإكبار، وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث : كان لا يذم أحداً ولا يعيبه، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه.

وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤسهم الطير فإذا سكت تكلموا، لا يتنازعون عنده الحديث، ومن تكلم عنده أنصتوا إليه حتى يفرغ، حديثهم عنده حديث أولهم، يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون ، ويصبر للغريب على الجفوة فى منطقه

ومسألته، حتى أن كان أصحابه ليستجلبوهم ويقول: إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فارفدوه، ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجور فيقطعه بنهى أو قيام».

وهناك أحاديث كثيرة مسندة إليه قد رواها عن أبيه أو عن أمه مما سمعاه من خاتم النبيين.

رجل فى مثل الحسين . . فى جمال خلْقَته، وجمال خُلُقه، وجمال تكوينه، وشخصيته التى تأثرت بالبيئة النبوية كان جديرا بأن يكون محبوباً عند الناس لأنهم يعرفون قدره، ومحبوباً عند صحابة رسول الله لأنهم يعرفون كم كان النبى حفياً به ومحبا له.

وكان الإمام عالما جليلاً . . متفقهاً فى أمور دينه وأصقلته تجارب الأيام.

سمع رجلاً يقول فى حضرته:

إن المعروف إذا أسدى إلى غير أهله ضاع !

فقال له الإمام الحسين : ليس كذلك ولكن تكون الصنيعة مثل وابل المطر تصيب البر والفاجر!

ومن أقواله المأثورة:

- إياك وما تعتذر منه، فإن المؤمن لا يسئ ولا يعتذر، والمنافق كل يوم يسئ ويعتذر.

- اعلموا أن حوائج الناس إليكم من نعم الله عز وجل عليكم، فلا تملوا النعم فتعود النقم.

- لا تتكلف ما لا تطيق، ولا تتعرض لما لا تدرك، ولا تعد بما لا تقدر عليه، ولا تنفق إلا بقدر ما تستفيد، ولا تطلب من الجزاء إلا بقدر ما صنعت، ولا تفرح بما نلت من طاعة الله، ولا تتناول إلا ما رأيت نفسك أهلا له».

وعندما سأله رجل كيف أصبح قال:

أصبحت ولى رب فوقى، والنار أمامى، والموت يطلبنى، والحساب محدق بى، وأنا مرتهن بعملى، لا أجد ما أحب، ولا أدفع ما أكره، والأمور بيد غيرى، فإن شاء عذبنى، وإن شاء عفا عنى.. فأى فقير أفقر منى!

بهذا الأسلوب الجميل ..

وبهذه المعانى الراقية الشفافة.

وبهذه التجليات التى تفوح بالإيمان والحكمة وفهم أمور الحياة، بما مر عليه من تجارب، وما تغلغل فى أعماق نفسه من أنوار النبوة.. كان الإمام الحسين صورة تجسد كل ما فى الإسلام من قيم الحق والخير والجمال، والعدل والإيثار.. وأن يعيش بالمبادئ وللمبادئ .. فلم يؤثر عنه المداهنة أو النفاق أو السعى وراء مغانم رخيصة ..ولكنه عاش وفى قلبه منهج القرآن، وسنة جده عليه الصلاة والسلام .. فعاش حياته كلها ينشد الحق ويسعى إليه، ويكره الباطل ويحاربه.. وما موقفه بعد ذلك عندما قرر أن يتصدى لظلم بنى أمية، والوقوف فى وجه يزيد، واستشهد فى سبيل

المبدأ. . وكان يمكنه لو أراد أن يعيش فى ترف من العيش، وفى رغد من المال ، لاستطاع ولأعطاه الحكم الأموى ما يريد على ألا يقف فى طريقهم، ويفند أكاذيب حكمهم الذى ابتعد عن الحكم الذى انتهجه الراشدون من الخلفاء. . لو أراد ذلك ما كلفه ذلك إلا الصمت عن الخوض فى سياسة الدولة الأموية المتمثلة فى يزيد بن معاوية، ولكن رفض أن يرى الظلم ويسكت.

ورفض أن يرى الباطل يرتفع له لواء ويصمت، ورفض أن يرى الحكم بالكتاب والسنة قد خفت ثم يلوذ بالصمت.

ورفض أن يشاهد المظالم على أشدها. . وأموال المسلمين تغدق بلا حساب على الأعوان وطلاب السلطة، والمتحلقين لها يبغون السلطان ويضع يده فى أذنيه . .

لقد قرر أن يقوم بثورة . . أن يغير من الصورة القاتمة التى عششت على العالم الإسلامى فى فترة حكم يزيد بن معاوية!

هل كان يعرف أنه يستطيع أن يتغلب على الدولة الأموية فى أوج قوتها وعنفوان سلطانها ؟!

وهل حسب أن بقدرته أن يقضى على دولة لها جيوشها القوية، ويدها المتمكنة من أعناق الناس، ولها سطوة الحكم، وجبروت السلطة؟

هل كان اندفاع من الإمام الحسين أن يذهب ليحارب قوى عاتية تملك السلاح. . والرجال. . ويخر تحت أقدامها طلاب النفوذ والجاه

والمال. . وهل كان يتصور أن ينتصر وسيوف الناس معهم حتى لو كانت قلوبهم معه؟

أم أن الأقدار قد كتبت عليه أن يكون دمه الشريف نقطة تحول فى التاريخ الإسلامى كله؟ فإن دم الإمام الحسين لم يضع عبثا، فقد انهارت الدولة الأموية بعد أقل من قرن واحد. . ولتظل بعد ذلك العبرة بأن الحق دائما يعلو فى النهاية مهما كانت أشواك الطريق.

إن النظر إلى موقف الإمام الحسين من خلال النظرة إلى الحوادث التى تمر بدنيا الناس، ربما لا يكون نظراً سليما، فإن لموقف الإمام الحسين بُعد إيمانى غيبى. . فقد كان عليه أن يطلق صيحته بأن يكون الحكم شورى بين المسلمين كما أقره الإسلام، وأن الديكتاتورية وحكم الفرد مما يأباه الإسلام، وان لتقويم الأوضاع لابد من الضحايا . . لابد من الدم والدموع . حتى لا يترك الباطل يرفع فى أرض الله.

وحتى لا نترك سلوكيات الناس حسب الأهواء ولا حسب ما جاء فى كتاب الله وسنة الرسول .

لقد كان الإمام الحسين يوقن بقوله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّه كِتَابًا مُّؤَجَّلاً ﴾

[آل عمران: ١٤٥]

وقد أخرج الإمام أحمد فى مسنده، هذا الحديث الشريف:

عن أم سلمة قالت:

رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يمسح رأس الحسين ويبكى.

فقلت : ما بكاؤك؟

قال: «إن جبريل أخبرنى أن ابنى هذا يقتل بأرض يقال لها كربلاء».

قالت: ثم ناولنى كفا من تراب أحمر وقال : «إن هذا من تربة الأرض التى يقتل بها، فمتى صار دما فاعلمى أنه قد قتل».

قالت أم سلمة: فوضعت التراب فى قارورة عندى، وكنت أقول: أن يوما يتحول فيه دما ليوم عظيم.

وفى رواية أخرى عن أم سلمة قالت:

كان جبريل عند النبى صلى الله عليه وسلم والحسين معى، فبكى فتركته فذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له جبريل : أتحبه يا محمد؟

قال : «نعم»

قال : إن أمتك ستقتله، وإن شئت أريتك من تربة الأرض التى يقتل بها، فبسط جناحه إلى الأرض فأراه أرضا يقال لها كربلاء!

ورويت أحاديث كثيرة بصيغ مختلفة يتجمع فى مضمونها على أن النبى عليه السلام قد تنبأ بقتل حفيده الحسين فى كربلاء والحديث بلا شك قد عرفه أهل البيت، حتى أن ابن عباس قال:

ما كنا نشك وأهل البيت متوافرون أن الحسين بن عليٍّ يقتل بألطف.

والإمام الحسين كان يعرف بلاشك أمر حديث جده عليه الصلاة والسلام.. ومن هنا فقد خرج غير هياب ولا وجل.

أترى قد قدر على الإمام الحسين ما قدر على والده الإمام عليٍّ كرم الله وجهه.

فقد تنبأ الرسول عليه الصلاة والسلام للإمام عليٍّ بأنه سيقتل.

فقد مرض فى شبابه مرضا شديدا، وذهب النبى عليه السلام ليزوره أثناء هذا المرض، وكان عنده أبو بكر وعمر، وهمس أبو بكر للرسول أن عليا سيموت فى مرضه هذا، ولكن الرسول عليه السلام قال له:

«إن عليا لن يموت فى مرضه هذا، وهو لن يموت ولكن سيقتل بعد أن يتجرع الغيظ!!».

وتحققت نبوءه الرسول.. فقد نجا عليٌّ من هذا المرض.. ومرت أيام الرسول وأبى بكر وعمر وعثمان، وبويع بالخلافة، وحارب معاوية الذى رفض مبايعته وكاد ينتصر عليه فى (صفين) لولا خدعة «التحكيم» وانشق عليه الخوارج، وتخاذل أهل العراق عن نصرته، فيجرع الغيظ كما تنبأ له الرسول عليه الصلاة والسلام، حتى أنه قال وهو يرى تخاذلهم فوضع المصحف فوق رأسه وقال:

اللهم إنهم منعونى أن أقوم فى الأمة بما فيه (المصحف) فأعطنى ثواب ما فيه.

اللهم إنى مللتهم وملونى . . وأبغضتهم وأبغضونى، وحملونى على غير طبيعتى وخلقى وأخلاق لم تكن تعرف لى !

اللهم فأبدلنى بهم خيرا منهم، وأبدلهم بى شرا منى، اللهم أمت قلوبهم موت الملح فى الماء »

وكان عبد الرحمن بن ملجم قد أخذ على نفسه عهدا بأن يقتل الإمام علىٍّ رضى الله عنه، وكان ابن يلجم هذا أحد ثلاثة من الخوارج قد عاهدوا أنفسهم بقتل علىٍّ ومعاوية وعمرو بن العاص . وكان أن تعهد عمرو بن بكر بقتل عمرو بن العاص.

أما الذى تعهد بقتل معاوية فهو البرك بن عبد الله. وفشلت محاولة قتل كل من معاوية وعمرو بن العاص، فقد كان معاوية يحيطه الحراس، وما كاد الرجل يرفع سيفه الذى أصاب (الية) معاوية حتى تكاثر الحراس وقبضوا عليه. . وعولج معاوية وشفى، وأما الذى حاول قتل عمرو بن العاص، فقد ضرب بسيفه (خارجة) الذى صلى بدلاً من عمرو فى مسجده لمرض عمرو وقتل خارجه، وعندما جاءوا به إلى عمرو بن العاص أمر بقتله وقال كلمته الشهيرة:

- أردتنى وأراد الله خارجة.

أما ابن ملجم التى أغرته امرأة فاتنة من نساء الكوفة تدعى (قطام) بقتل الإمام علىٍّ لأنه قتل زوجها وأخاها يوم (النهروان) وأن هذا سيكون أهم شئ فى مهرها، وشاهد الإمام علىٌّ بن أبى طالب ابن ملجم وهو يعنى بسيفه ويسقيه السم، وكان يغدق عليه

ويعطيه ما يريد من المال، وقد حذره أصحابه منه . . حتى أن الإمام سأله يوما :

- لم تسن سيفك؟

- لعدوى وعدوك!

ولم يستسغ الإمام علىٌّ نظرات الرجل إليه، وتذكر ما قاله له رسول الله ذات يوم . . فقد سأل النبى الإمام:

«يا علىٌّ من أشقى الأولين؟»

قال : الذى عقر الناقة.

قال النبى : «ومن أشقى الآخرين؟»

قال: لا أدرى.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الذى يضربك على هذا (وأشار إلى رأسه) فيخضب هذه (وأشار إلى لحيته)!».

تذكر الإمام ذلك وتيقن أن قاتله هو ابن ملجم، حتى أنه كان كلما رآه قال:

- أريد حياته ويريد قتلى!!

إلى أن اغتاله هذا الرجل الخسيس عندما خرج لصلاة الفجر . . وكان كالعادة بلا حراسة فضربه ابن ملجم بسيفه . . تلك الضربة التى أنهت حياته!

وهذه الحادثة تبين الفرق الشاسع بين الإمام وبينه وبين غيرهم.

فبعد ما ضُرب الإمام عليٍّ بالسيف المسموم، وطلب أن يأتوا بابن ملجم دار بينهما هذا الحوار :

- أى عدو الله ألم أحسن إليك؟!

- بلى .

- فما حملك على هذا؟

-شحذته (أى السيف) أربعين صباحا وسألت الله أن يقتل به شر خلقه!

- لا أراك إلا مقتولا به، ولا أراك إلا من شر خلقه . !

ولنرى عظمة الإمام عليٍّ . . إنه يأمر أصحابه أن يقتلوا قاتله إذا مات، أما إذا ظل على قيد الحياة فسوف يقرر بنفسه العقوبة وكانت وصيته لهم :

« احبسوه فإن مت فاقتلوه ولا تمثلوا به، وإن لم أمت فالأمر إلىَّ فى العفو أو القصاص! النفس بالنفس . . إن هلكت فاقتلوه وإن بقيت رأيت فيه رأيى، يا بنى عبد المطلب لألفينّكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين! ألا لايقتلن إلا قاتلى إن عشت فالجروح قصاص، وإن مت فاقتلوه، لكى احبسوه وأحسنوا» .

قال ذلك والدماء تنزف من رأسه وتغطى لحيته، وطلب من أصحابه ألا يمثلوا به . . والفارق شاسع بين هذه الأخلاق، وأخلاق أصحاب يزيد عندما تمكنوا من الحسين فى كربلاء!

إنه الفرق بين الذين يريدون وجه الله، والذين لايريدون إلا عرض الدنيا الزائل .



(٣)

الحسين ويزيد

دأب المؤرخون وهم يتحدثون عن سير الأحداث بين بنى هاشم وبين بنى أمية، أن يتوقفوا عند شخصية الإمام الحسين، وشخصية يزيد بن معاوية ثانى خلفاء بنى أمية.

وليس هناك مقارنة فى مجال الفضل والقيم الأخلاقية بينهما.. فالحسين سليل النبوة.. امتص الكثير من رحيقها وتأدب بأدابها، وسلك سلوك أهل الفضل والقيم والدين.. بينما كان يزيد مترفا.. عابثا.. يقضى جل وقته فى الصيد.. مغرما بالنساء.

الفارق شاسع بين تكوين الشخصيتين.. حتى أنه يصعب المقارنة بين الشخصيتين.

فلا مقارنة بين من كان خلقه كخلق جده العظيم متمثلاً بالعمل بالكتاب والسنة..

وبين إنسان باعد الترف بينه وبين الدين، وجعلته حياة القصور مدللاً.. عابثا.. لاهياً.. لايهمه سوى الجرى وراء نزواته وشهواته وأهوائه.

وكان أتباع الحسين هم الذين يريدون أن تعود الحياة إلى ماكانت عليه أيام الرسول وخلفاؤه الراشدين.

وكان أتباع يزيد هم الذين يريدون أن يعيشوا حياتهم فى ترف.. يتملقون السلطان ليغدق عليهم، ولم يكن أمر الآخرة يعنيهم.

فعندما قتل الإمام الحسين، وجاء النبأ إلى ابن زياد فى الكوفة لم يتورع أن يدعو الناس إلى الصلاة الجامعة، وبكل غطرسة المحب

لدنياه المؤثر لها.. وبكل صلف المتعجرفون والطغاة صعد المنبر وقال للناس:

الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله، ونصر أمير المؤمنين يزيد ابن معاوية، وقتل الكذاب ابن الكذاب الحسين بن علىٍّ وشيعته.....!

إن ابن زياد يعلم فى قرارة نفسه أنه بهذه الكلمات الكاذبة أنه لا يقول الحقيقة، وهو يعرف أن الإمام علىٍّ ليس بالكذاب ولا كان يوما من الأيام كاذبا.. بل هو صاحب المواقف الخالدة مع الرسول.. مقاتلا أعداء الحق مدافعاً عن رسوله.. مستبسلاً فى سبيل مبادئه.

وهو يعلم أن الحسين سبط رسول الله والقريب إلى قلبه ونفسه، وأن سعادته تسعده، وحزنه يؤذيه.

ومع ذلك فقد تجرأ هذا الدعى وهو يخطب المسلمين، الذين يؤمنون بأن الذى يصفه بالكذاب هو ابن عم الرسول الكريم، وهو أول من أسلم من الصبيان.. وأن نبيهم قال عنه الأحاديث التى تشيد بفضله وجهاده ومناقبه.

والذى استمعوا إلى هذا الذى يشترى رضا السلطان بسخط الله يعلم أن الحسين من خير الناس.. وأنه أقرب أهل الارض إلى أهل السماء كما وصفه ابن عمرو بن العاص.. ومع ذلك تجرأ هذا المنافق ليقول هذا القول الشنيع عن ابن عم المصطفى وعترته. وصمت الناس!

بعضهم عن خوف ورهبة!

وبعضهم إيثارا للسلامة، وقد رأو أن العصا الغليظة يمسك بها بنو أمية ومعاونوهم..!

ولكن هذا الجو المظلم الكئيب الذى عاشه الناس فى هذه الفترة من التاريخ.. جعلت للحق من ينطق به مهما كانت العواقب، توقف عبد الله بن عفيف وكان شيخا ضريراً ليرد على هذا الدّعى وقال له:

يا ابن مرجانه أتقتل أبناء النبيين، وتقوم على المنبر مقام الصديقين؟ إنما الكذاب أنت وأبوك والذى ولاك وأبوه!!

وكان هذا الشيخ الضرير من الذين يعرفون قدر آل البيت فقد حارب مع الإمام وفقد عينيه وهو يقاتل فى صفوف الإمام.. فقد إحداهما فى معركة الجمل والأخرى فى معركة صفين.. ولكن الطغيان لم يمهله، فقد أمر ابن زياد بصلبه. وذهب الرجل شهيد كلمة الحق.

لم يلجأ الحسين فى معركته مع يزيد إلى الحيل الخسيسة كما لجأ أتباع بنو أمية الذين كانوا يرددون أن لله جنود من العسل !!

وهم يقصدون بذلك إنهم إذا أرادوا أن يتخلصوا من أعدائهم فإنهم كانوا يدسون لهم السم فى العسل..!

ولم يكن من أخلاق آل البيت أن يدسوا لأحد السم فى العسل أو غير العسل للتخلص منه.. كانوا يحبون المواجهة بلا غدر ولا خديعة.

كان الحسين مثل أبيه الذى كان فى أثناء معاركه يعظ الناس ويرسم له طريق الجنة والنار.

وكان يزيد مثل أبيه يغرى أعوانه بالذهب والفضة والمناصب.

وكان الملتفون حول أهل البيت يريدون ما عند الله لا ما عند السلطان، وكان الملتفون حول بيت بنى أمية يريدون المناصب والمغانم، وقد ميز أحدهم بين الفريقين عندما توجه إلى معاوية مناديا له بأمير المؤمنين عندما رفض مبايعة (علىٍّ). . وقال له:

- يا أمير المؤمنين. . إنى أخبرك يا أمير المؤمنين أنك تقوى على علىٍّ بدون ما يقوى به عليك، لأن معك قوما لا يقولون إذا قلت، ولا يسألون إذا أمرت. وإن مع علىٍّ قوما يقولون إذا قال، ويسألون إذا أمر، فقليل مما معك خير من كثير ممن معه!

إن هذا الرجل لخص الفرق بين طرفى المعادلة.

بين الذين مع معاوية والذين مع علىٍّ.

الذين مع معاوية يطيعونه طاعة عمياء، بينما الطرف الآخر يناقشه فى كل صغيرة وكبيرة.

ولنسق موقف يتضح فيه أخلاق تلك الفئتين:

حدثت مع الإمام علىٍّ، وحدثت مع الإمام الحسين أيضا.

عندما توجه الإمام علىٍّ إلى (صفين) لقتال معاوية، وكان هو فى جند يبلغ التسعين ألفا، وكان معاوية فى جند يبلغ مائة وعشرين

ألفا.. كان معاوية قد سبق الإمام وعسكر فى مكان بالقرب من الماء.. وقد حاول معاوية أن يحول بين جيش علىٍّ والماء.. ونصحه عمرو بن العاص ألا يفعل ذلك، لأن لو كان علياً مكانه ما منع الماء عن أعدائه.. ولكن معاوية لم يأخذ بنصيحة عمرو، مما اضطر الإمام أن يأمر جيشه باقتحام جيش معاوية للوصول إلى الماء، ونجح جيش علىٍّ فى ذلك ووصل إلى الماء، وعندما طلب منه بعض أتباعه منع الماء عن جيش معاوية رفض ذلك قائلاً لرجاله :

خذوا حاجتكم من الماء وارجعوا إلى عسكركم وخلوا بينهم وبين الماء فإن الله قد نصركم ببغيهم وظلمهم.

نفس هذا الموقت حدث عندما حوصر الإمام الحسين فى كربلاء، فقد حالوا بينه وبين الماء، ولم يمكنوه منه، بل بلغ من غلظة قلوبهم أن قتلوا أحد أطفال الحسين رميا بالنبال وهو يحاول أن يروى ظمأه!!

وهناك رواية تروى موجودة فى كتب التراث وهى توضح العداوة بين الحسين ويزيد، وهذه القصة لو صحت تزيد من عمق هذه العداوة.. وهى قصة زواج الإمام الحسين بزينب ابنة إسحاق.. وملخص هذه القصة أن زينب هذه كانت بالغة الجمال، وكانت زوجة لوالى العراق من قبل معاوية عبد الله بن سلام القرشى.. وقد رأها يزيد، وأعجب بها إعجابا شديداً ثم تحول الإعجاب إلى حب جارف بها، حتى أنه مرض ولزم الفراش، ووصل الأمر إلى

معاوية، وعرف قصة ابنه وولعه الشديد بزينب ابنة اسحاق، فأخبر ابنه أن الأمر يسير، وقد عرض على زوجها أن يطلقها لأنه يرغب أن يزوجه من ابنته، وأن ابنته لا تريد لنفسها ضره، وما كاد عبد الله بن سلام يسمع برغبة أمير المؤمنين بأن يزوجه من ابنته حتى اعترته السعادة، وشعر أن الدنيا سوف تقبل عليه، وأن معاوية سيقوى من نفوذه، وذهب الرجل إلى معاوية يطلب منه يد ابنته، غير أن معاوية أخبره أن ابنته لا تحب أن يكون لها ضره، وأنها لا تمانع فى زواجه بشرط أن يطلق زوجته، فقام الرجل بطلاق زوجته، وأحست زينب بأن زوجها رجل يسعى إلى السلطة، وأنه طلقها مع حبها له. . !

وكان أبو هريرة قد سمع من معاوية رغبته تلك فى أن يتزوج عبد الله بن سلام ابنته. . !

وعندما طلق الرجل زينب، وذهب إلى معاوية طالبا الزواج من ابنته. . قال له معاوية أنه سوف يرى ما تراه ابنته، وأنه سوف يستطلع رأيها فى هذا الأمر!!

وجاء رده الأخير أن ابنته لا تريد الزواج من رجل طلق زوجته وهى ابنة عمه، وأجمل نساء عصرها فهى بالتالى لا تأمن غدره!!

وتقول الرواية : إن الحسين علم بهذه القصة من أبى هريرة ولم تعجبة أخلاق معاوية، فأرسل إلى زينب يخطبها حتى يبعدها عن يزيد. . وذهب إليها أبو هريره ليخطبها قائلاً لها :

- إنك لا تعدين طلابا خيرا من عبد الله بن سلام.

قالت له:

- من؟

قال أبو هريرة:

يزيد بن معاوية والحسين بن عليٍّ فم قبله رسول الله تضعين شفتيك موضع شفتيه.

وقلبت زينب الأمر وقالت لأبى هريرة وهو يسألها عن أيهما تختار؟

- لا أختار على الحسين بن عليٍّ أحد وهو ريحانة النبى وسيد أهل الجنة.

ويقول الرواة إنه عندما وصل إلى سمع معاوية ما حدث.. قال:

انعمى أم خالد رب ساع لقاعد!

ويقول الرواة أيضا وهم يتحدثون عن تفاصيلها أن زوج زينب قد أسف لموقفه من زوجته بعد أن عرف أبعاد المكيدة، وأنه تمنى أن تعود إليه، فردها إليه الحسين قائلاً:

- ما أدخلتها فى بيتى وتحت نكاحى رغبة فى مالها ولا جمالها، ولكن أردت أحلالها لبعلها.

ولو صحت هذه الرواية وهى منشورة فى العديد من كتب التراث، فمعنى هذا أن يزيد كان يحقد عليه حقدا شديدا، وأنه لم يراع أى حرمة، عندما ظفر بالحسين فى كربلاء، فكان هذا الحادث

أحد الدوافع التى دفعت يزيد إلى التمثيل بجسد الحسين بعد استشهاده فى كربلاء.

فقد كان يزيد محبا للنساء بل نسب إليه أن كان يقول الشعر ويتمثله، وأن هذا البيت الشهير فى الأدب العربى، ينسب إليه:

وأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت

وردا، وعضت على العُناب بالبرد

رجل يملك هذا الحسن الشعرى، ويصور من أحبها قلبه بأنها عندما تبكى يتساقط من عينها اللؤلؤ، وعينها تشبه النرجس، ويتغزل فى خديها وشفتيها.. الخد الذى يشبه الورد، والشفاه التى تشبه العنابا.. رجل يهيم حبا بالنساء بهذه الصورة.. لابد أن يشقيه، وتترك فى نفسه جراحا لا تنسى، عندما يفقد من أحب، والذى مرض بسبب هذا الحب!

مهما يكن من شئ..

فالحسين كان يختلف تماما من حيث المنشأ والبيئة والأخلاقيات عن يزيد الذى نشأ على الترف والزهو بالامتلاك والولع بالصيد والنساء.

ولم يكن الذين حوله من دهاة العرب الذين كانوا ينصحون والده، بل كان يلتف حوله ذوى العاهات النفسية الذين يريدون أن يكونوا من أصحاب النفوذ وأصحاب المكانة، ولا يؤهلهم لذلك شئ من حنكة الحكم، وممارسة السياسة.. إنهم كانوا مجرد كلاب

للسلطة الحاكمة أمثال عبيد الله بن زياد، وشمر بن ذى الجوشن، ومسلم بن عقبة.

فعبيد الله هو ابن زياد بن أبيه الذى كان مشكوكاً بنسبه إلى أن ألحقه بنسبه معاوية بن أبى سفيان نتيجة ما قدمه من خدمات للدولة الأموية فأصبح زياد بن أبى سفيان.

وإنسان يحيط به ذلك لا يمكن أن يكون صاحب نفسية سليمة.

وشمر بن ذى الجوشن كان زرى الهيئة، مصابا بالبرص نهما فى حب المال.. فكيف يكون صاحب مثل هذه النفسية؟!

وكان مسلم بن عقبة أعور، قبيح الهيئة يعتبر نفسه خادما مطيعا للسلطان، وبلغ من قسوة قلبه أن أباح المدينة ثلاثة أيام يقتل وينهب ويسلب بحجة أخذ البيعة ليزيد..!

أمثال هذه الممسوخات البشرية كانوا هم قادة الدولة فى عهد يزيد ابن معاوية.. فكانوا فى سبيل الوصول إلى مطامعهم يفعلون أى شئ دون مراعاة لحرمة، أو دين..!

نماذج غريبة من البشر ذوى العاهات كانت تلتف حول يزيد، وتسول له أمورا لنيل الحظوة عنده على حساب أبسط قواعد القيم والمبادئ..

وهناك نموذج آخر من الدهاة الذين لايريدون بمشورتهم رضا الله، ولكن لتحقيق أطماع لنفوسهم المريضة بالقفز على كراسى السلطة.. ومن هؤلاء مروان بن الحكم الذى أشار إلى الوليد بن

عقبة بن أبى سفيان والى الأمويين على المدينة بقتل الحسين وعبد الله بن الزبير إن رفضا البيعة ليزيد، وكان يرمى من وراء ذلك أن يقيم فتنة، فإن قُتل الحسين وعبد الله بن الزبير قامت ثورة عارمة فى الحجاز، فيقفز هو على كرسى السلطة، وإذا بايعا فيكون قد أخلص النصح بحرصه على جمع الكلمة وجمع الشمل، ولكن الوليد لم يستسغ تلك النصيحة، وتأفف من قتل الحسين ! وخرج الحسين مع أهله متوجها إلى مكة حتى لا يعطى البيعة لليزيد، وسبقه ابن الزبير إلى مكة، وكان خروج الحسين قبل انتهاء شهر رجب بيومين من عام ستين للهجرة.

ويقول الرواة وهم يقارنون بين الحسين ويزيد، أن الحسين كان صاحب هيبة وجلال وصاحب تقوى وعلم وكان شديد الوسامة مما جذب إليه القلوب بجانب ما امتاز به من دماثة الأخلاق، وحب الخير، وعدم جرح الناس حتى وهو يحاول أن يلقنهم حقائق الدين.

ويرون أنه شاهد ذات يوم عجوزا لا يحسن الوضوء وكان بصحبة أخيه الحسن، فلم يشأ أحد منهما أن يقول للرجل إنك لا تحسن الوضوء، بل أدعا للشيخ أنهما لا يحسنان الوضوء، وأن عليه أن يراقبهما أثناء قيامهما بالوضوء، ويحكم أيهما كان وضوءه الأصوب!

وشاهد الرجل الحسن وهو يتوضأ.

وشاهد الحسين وهو يتوضأ. . كما كان يتوضأ الرسول عليه الصلاة والسلام، وابتسم الرجل وهو يرنو إليهما بحنان من عرف أنهما من دوحة النبوة. . وأيقن أنه هو الذى لا يحسن الوضوء وانهما أرادا ألا يحرجا مشاعره، ويعلمانه الوضوء بهذا الأدب، وتلك الكياسة. . ابتسم الرجل وهو يقول لهما:

- كلاكما على حق وأنا الذى لم أحسن الوضوء. .

ويقول الرواة أن يزيد كان طويلاً. . وكان على وجهه أثر الجدرى، وأنه تربى مع أمه فى البادية وهى ميسون ابنة بحدل الكلبية. . وقد عاش فى البادية لأن أمه ميسون كرهت حياة الترف فى دمشق، وآثرت أن تعيش فى البادية. . وهى القائلة:

للبس عباءة وتقر عينى
• أحب إلىَّ من لبس الشفوف
وبيت تخفق الأرواح فيه
أحب إلىَّ من قصر منيف

فهى تحب الحياة فى البادية. . بسمائها المكشوفة. . وانبساط رمالها ونخيلها، وحرية الحركة فيها عن الحياة فى بيوت مشيدة، لا حرية فيها، حتى لو لبست أجمل الثياب!

وقد استجاب معاوية لرغبتها وتركها تعيش كما كانت ترغب فى البادية، فشب يزيد محبا للانطلاق. . محبا للمتع، تأثر بالبادية

فأحب الشعر والكلمة الرقيقة، وقيل أنه كان شاعرا، وإن كان ذلك يتنافى مع الأحداث التى حدثت فيما بعد فى كربلاء فالشاعر لابد إن يكون رقيق الحس.. مرهف الوجدان، فكيف استساغ هذا القلب أن يرى الحسين ممثلاً بجسده الشريف، وكيف أباح لنفسه أن يرى آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يعاملن معاملة السبايا؟!

أى مشاعر هذه!

وأى شاعر لايحس مهما امتلأ شماته وحقدا أن يرى ما فعله أعوانه بآل البيت، ثم لا تمس قلبه تلك الأضواء الباهرة التى انبعثت من هذا البيت الطاهر.

وأى نفس مؤمنة تلك التى لا تهفوا إلى دوحة رسول الله.!

وأى عصبية تلك مهما بلغ التعصب لها أن تحجب الرؤية عن النور المتمثل فى الدعوة الخاتمة والتى جاء بها جد الإمام الحسين!

ومن المثالب التى أخذت عليه أيضا هربه من أن يسلك طريق الجهاد حتى أنه تمارض حتى لا يذهب مع الجيش الذى بعث به والده بقيادة سفيان بن عوف للتوجه لمجابهة الروم فى القسطنطينية!

ويقول الرواة عنه أيضا أنه كان شديد الولع بقرد عنده كان يطلق عليه (أباقيس).. وكان يلبس هذا القرد ملابس مطرزة بالذهب والفضة، ويأخذه إلى السباق، ويجعله يركب أتانا، حتى يسابق به الخيول.. يفعل ذلك بعد أن يكون قد شرب حتى الثمالة!

رجل بهذه التركيبة النفسية لايمكن أن يسوس دولة، ولا أن يشق بها طريقاً، ولا يمكن أن يكون منافسته للأخرين على مستوى من المسئولية أو الأخلاق، لأنه لم يعرف أقدار الرجال، على عكس أبيه.. الذى كان رغم كل ما اتصف به من دهاء وذكاء وحب للسلطة، كان شديد الحرص على أقدار الناس.. وكان شديد الحلم.. ويسمع من يسَّبه بأذنيه ثم يتظاهر أنه لم يسمع شيئاً، أو يعفو.. وإن كان هو الآخر لم يستطع أن يكتم غيظه وحقده على بنى هاشم عندما سمح بأن يلعن الإمام علىٍّ بن أبى طالب، وهو من هو، مقاماً عالياً رفيعاً فى الإسلام.

سمح للمنافقين وأتباع الشيطان أن يسبوه على المنابر! ناسيا أو متناسيا قول رسول الله عليه الصلاة والسلام عنه:

«من أحب عليا فقد أحبنى، ومن أحبنى فقد أحب الله، ومن أبغض عليا فقد ابغضنى، ومن أبغضنى فقد أبغض الله».

وقال عنه عليه الصلاة والسلام أيضا كما روى ذلك سعد بن أبى وقاص:

«من آذى عليا فقد آذانى».

فما بال هؤلاء القوم لم يراعوا حرمة الرسول فى أهله؟! سؤال حائر ومحير!

ولكن الذى يعرف من هو الحسين ومنزلته ومكانته عند الله وعند الناس، سوف يجد فى سلوكياته والطريق الذى سلكه ما هو جدير به وبنسبه الشريف.

والذى يعرف يزيد بن معاوية ومعدنه لن يتعجب كثيرا من سلوكياته، فلم يكن أهلاً للمودة والفضائل، ونبل الأخلاق.

وكل إناء بما فيه ينضح كما يقولون!

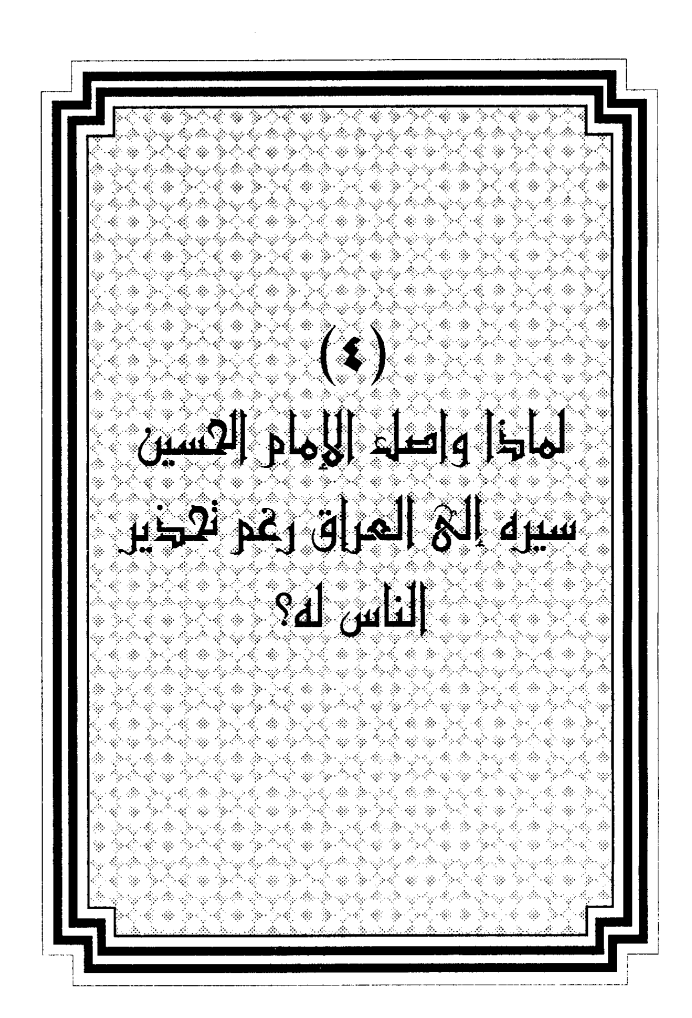
اسمع إلى الحسين وهو يناجى ربه بكل خشوع العارفين بالله:

اللهم اجعلنى أخشاك كأننى أراك، وأسعدنى بتقواك، ولا تشقنى بمعصيتك، وخِدلى فى قضائك، وبارك لى فى قدرك حتى لا أحب تعجيل ما اخترت، ولا تأخير ما أجلت.

اللهم اجعل غناى فى نفسى، واليقين فى قلبى، والإخلاص فى عملى، والنور فى بصرى، والبصيرة فى دينى، ومتعنى بجوارحى، واجعل سمعى وبصرى الوارثين منى، وانصرنى على من ظلمنى، وأرنى فيه ثأرى ومأربى وأقر عينى.

اللهم اكشف كربتى، واستر عورتى، واغفر لى خطيئتى، واخسأ شيطانى، وفك رهانى، واجعل لى الدرجة العليا فى الأخرة والأولى.

هذا هو الإمام الحسين الذى عرفه الناس إماما ورعا جليلاً.. فليس هناك إذن مجال للمقارنة بينه وبين يزيد!



(٤)
لماذا واصل الإمام الحسين سيره إلى العراق رغم تحذير الناس له؟

قال له الفرزدق : قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية!

فى ذكرى مولد مولانا الإمام الحسين، سبط رسول الله ﷺ وسيد شباب أهل الجنة، نتذكر قصته الخالدة، عندما خرج وفى ذهنه أن يقوض حكم بنى أمية، ويعيد للخلافة صفاءها ورواها، ولكنه استشهد فى كربلاء، ولاقى من أعدائه مالم يمكن تصوره من الخسة والنذالة، وعدم مراعاة لحرمة البيت النبوى.

وقصة الإمام الحسين تثير العديد من علامات الاستفهام حول نوعين من البشر.. نوع يريد ما عند الله ولو ضحى بنفسه ودنياه!

ونوع آخر يريد الدنيا والتملق للسلطان حتى لو باع دنياه بدينه.

ومع قصة الإمام الحسين، ومأساة كربلاء يحس الإنسان بكثير من المعانى التى لا يمكن التعبير عنها!!

الحسين فى مكة

خرج الحسين من المدينه إلى مكة لآئذا بها، بعد أن رفض أن يبايع يزيد على يد الوليد بن عقبة بن أبى سفيان والى المدينة، الذى لم يسمع لنصيحة مروان بن الحكم بأن يطلب من الحسين وعبد الله ابن الزبير المبايعة أو القتل، فكان الوليد يتحرج من قتل الحسين، لما

يعرف من مكانته فى قلب جده عليه الصلاة والسلم، ولما له أيضا من مكانه فى قلوب الناس.

خرج الحسين بعد أن أخذ معه ذويه من آل البيت إلى مكة، كما خرج من قبله عبد الله بن الزبير..

وكان خروجه لليلتين بقيتا من شهر رجب سنة ستين للهجرة.

وما كاد يستقر فى مكة حتى جاءت رسائل كثير من الكوفة بالعراق.. ومضمون هذه الرسائل أن هناك مايربو عن مائة ألف يريدون أن يبايعوه بالخلافة.. ولم يكتف أهل الكوفة بالرسائل فقد بعثوا برسل للحسين تطالبه بالذهاب إلى العراق، وأنهم سوف يقفون بجانبه ويآزرونه لأنه هو الأحق بالخلافة.

كان عبد الله بن الزبير يراقب الأحداث، وكان يذهب إلى بيت الله الحرام متعبدا، بعد أن ترك الأمر للحسين، أما هؤلاء الذى كان يبعث بهم ولاة يزيد لعبد الله بن الزبير فلم يستطيعوا أن ينالوا منه لمنعته فى قومه، ولأن له أعوانا، فذاع أمره فى الحجاز كله لمقاومته ورفضه لولاية يزيد بن معاوية، ولكن الرجل أيقن أن دوره يأتى بعد الإمام الحسين، ومن هنا فقد أثر الصمت والسكون وهو يعلم أن الوقت ليس وقته، وأن الأضواء مسلطة على الإمام الحسين على أساس أنه هو الأحق بهذا الأمر من غيره.

وكان يزيد يهمه أن يأخذ البيعة من كليهما وكان يعرف ما لهما من خطر عليه .

ولكن الأحداث تمضى بسرعة ورسل الكوفة ورسائل كبار القوم فيها يستعجلون الحسين بالحضور إليهم، وأنهم سيكونون معه حتى يتحقق الأمر له.. وأنهم لن يبايعوا يزيد، وأن مبايعتهم ستكون للإمام الحسين.

وأراد الحسين أن يستطلع الأمر، وآثر أن يرسل ابن عمه مسلم ابن عقيل، ويرسل له ما يعطيه صورة حقيقية عن طبيعة الأمور فى الكوفة، وأرسل لمن كاتبوه رسالة يقول لهم فيها:

أما بعد:

فقد فهمت كل الذى قصصتم. وقد بعثت إليكم بابن عمى وثقتى من أهل بيتى مسلم بن عقيل وأمرته أن يكتب إلى بحالكم وأمركم ورأيكم، فإن كتب إلى أنه قد اجتمع رأى ملئكم وذوى الحجا منكم على مثل ما قدمت به رسلكم، أقدم إليكم وشيكا إن شاء الله، فلعمرى ما الإمام إلا العامل بكتاب الله، والقائم بالقسط، والدائن بدين الحق والسلام أهـ.

وسافر مسلم بن عقيل إلى الكوفة يحمل رسالة الإمام الحسين إليهم، وتجمع الناس حوله، وقيل إن الذين بايعوه أثنا عشر ألفا فى أول الأمر ، ثم أصبحوا ثمانية عشر ألفا بعد ذلك، وأرسل مسلم للحسين بذلك، مما شجع الحسين إلى الاستعداد للذهاب إلى الكوفة.

ولم يكن من الطبيعى ألا يسمع النعمان بن بشير والى الكوفة بما يحدث حوله، ولكن الرجل كان فى حيرة هل يعلن على أتباع الحسين الحرب أم ينتظر ما تجرى به الأيام. . ولكن أنباء تحرك مسلم ابن عقيل كانت قد وصلت إلى يزيد ،الذى أمر بعزل النعمان بن بشير عن الكوفة، وجعل وإليها عبيد الله بن زياد مع احتفاظه بولاية البصرة، وكتب إليه هذه الرسالة:

«إذا قدمت الكوفة فاطلب مسلم بن عقيل، فإن قدرت عليه فاقتله أو انفه».

كانت الكوفة تموج بالحركة. . ولاحديث لها إلا البيعة للحسين، والإلتفاف حول مسلم بن عقيل، الذى كان يدير الدعوة للحسين من دار هانئ بن عروة، ثم من دار شريك بن الأعور. . !

وعندما وصل عبيد الله إلى الكوفة بدأ عمله فى تعقب أتباع مسلم بن عقيل، وهدد الناس بالانصراف عنه، ثم ذهب إلى دار هانئ بن عروة عندما علم أنه يعانى المرض لزيارته بغرض أن يتقرب إليه، ويأخذه فى جانبه.

وتقول بعض الروايات أن شريك بن الأعور مرض، وعلم أن عبيد الله سوف يعوده، فبعث إلى مسلم بن عقيل أن يأتى أثناء زيارته ويقتله، فتزداد شوكة أتباع الإمام الحسين بالتخلص من عبيد الله بن زياد المعروف بتعنته وجبروته، ولكن مسلم رفض أن يقتل إنسانا غدراً!!

وعندما سألوا (مسلما) لماذا لم تقتل عبيد الله قال لهم:

حديث بلغنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيه: «الإيمان ضد الفتك لايفتك مؤمن».

وقال شريك:

- لوقتلته لجلست فى القصر لم يستعد منه أحد ولكفيناك أمر البصرة، ولو قتلته لقتلت ظالما فجورا.. ويقول الرواة أن شريكا مات بعد ذلك بثلاثة أيام!

مقتل مسلم بن عقيل

بدأ عبيد الله حكمة للكوفة بأن جمع الناس لصلاة جامعة ثم خطبهم بقوله:

أما بعد:

فإن أمير المؤمنين قد ولانى أمركم وثغركم وفيأكم، وأمرنى بإنصاف مظلومكم، وإعطاء محرومكم، والإحسان إلى سامعكم ومطيعكم، والشدة على مريبكم وعاصيكم، وإنما أنا ممتثل فيكم أمره، ومنفذ عهده».

ثم نزل ليتحرى عما يجرى فى الكوفة من أحداث لمواجهتها ويقول الرواة إن مسلم بن عقيل توجه ومعه أكثر من أربعة آلاف من أهل الكوفة وعلى رأسهم المختار بن عبيد الذى كان يرفع راية خضراء، وعبد الله بن نوفل بن الحارث الذى كان يرفع راية حمراء.

وكان مسلم فى وسط هذه الجموع إلى قصر عبيد الله، الذى أغلق قصره على نفسه وكان معه بعض رؤساء القبائل والذى أمرهم عبيد الله أن يطلوا من القصر، ويحذروا الناس من التورط مع مسلم، وأخذ هؤلاء يخذلون الناس ويهددونهم، فما كان من كثير من الذين خرجوا مع مسلم إلا أن تخاذلوا وتسللوا هاربين خوفا من بطش عبيد الله .

وأخذ اتباع عبيد الله يلحون على الناس بالفرار والنجاة بأنفسهم، فإذا بالناس يتفرقون من حول مسلم، وتوجه مسلم إلى (كنده) بعد أن تفرق عنه الأتباع والأنصار، ووجد نفسه وحيدا، بينما تتعقبه عيون أنصار بنى أمية، إلى أن قبضوا عليه، وأثخنوه بالجراح، وأتوا به إلى ابن زياد الذى أخذ يتوعده، وعرف مسلم أنه مقتول لا محالة، فرنا ببصره إلى مجلس ابن زياد فوجد فيهم عمر ابن سعد بن أبى وقاص، فطلب منه أن يتنحى به جانبا من القصر، ليسر إليه بوصية، لما له من قرابة مع عمر بن سعد، وأستأذن عمر ابن سعد ابن زياد فأذن له، فطلب منه مسلم أن يقضى عنه سبعمائة درهم كانت دينا عليه فى الكوفة، وإن يبعث إلى الحسين بعدم المجئ إلى الكوفة، وألا يمثل بجثته، وأفصح عمر بن سعد لابن زياد بما أسر إليه مسلم فقال له:

« أما مالك فهو لك ولسنا نمنعك أن تصنع به ما أحببت، وأما الحسين فإنه أن لم يردنا لم نرده، وإن أرادنا لن نكف عنه، وأما

جثته فإنا لن نشفعك فيها، وإنه ليس بأهل منا لذلك، فقد جاهدنا وخالفنا ، وجهد على هلاكنا ».

وصعدوا بمسلم إلى أعلى القصر، وأمر ابن زياد بكير بن حمران بضرب عنقه، وألقى بالرأس من فوق القصر، ثم رموا بجثته بعد ذلك!

والناس ينظرون وتقشعر أبدانهم مما يرون، وأخذتهم رعدة الخوف من ابن زياد، وأرسلت رأس مسلم بن عقيل إلى يزيد، مع رءوس بعض من كان يتردد عليهم فى الكوفة، وكان مقتل مسلم بن عقيل ليلة العيد (التاسع من ذى الحجة) سنة ستين من الهجرة.

خروج الحسين إلى العراق

وكان الإمام الحسين قد خرج من مكة متجها إلى الكوفة قبل مقتل ابن عمه مسلم بن عقيل بيوم واحد، وأثناء سيره جاءته الأحداث بمقتل مسلم.

وقبل خروجه من مكة نصحه البعض بعدم الذهاب إلى الكوفة التى ضاق بهم والده الإمام وضاقوا به، ولم ينصروه حتى النهاية وتخاذلوا عنه.. مما مكن لبنى أمية فى الشام.. وأن هؤلاء لن ينصروه، ولن يقفوا إلى جانبه إذا ما امتدت إليهم يد حكام بنى أمية الأقوياء، وأنهم سوف يفرون من المعركة إذا حدثت ويتركونه وحده!

نصحه ابن عباس بعدم الخروج وقال مما قال له: .

وإنى كاره لوجهك هذا تخرج إلى قوم قتلوا أباك وطعنوا أخاك حتى تركهم سخطة وملالة لهم، أذكرك الله أن لا تغرر بنفسك!

ونصحه عبد الله بن عمر بعدم الذهاب إلى العراق وقال له:

لاتخرج فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم خيره الله بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة، وإنك بضعة منه ولا تنالها- يقصد الدنيا-!.

ولكن الحسين لم يستمع إلى النصائح التى وجهت إليه من عدم الخروج إلى العراق، فقد طلب منه بعض المقربين إليه أن يظل فى مكة، فإذا ما حدث أن حاول بنو أمية إرغامه على شئ يكرهه، فسيكون فى عزوة من أهله ومحبيه فى مكة.. ولكن الحسين كان قد صمم على الذهاب إلى الكوفة..

ومضى الإمام الحسين فى طريقة إلى الكوفة .

وأخذ البعض يرسل إلى يزيد وبعض ولاته عن وجهه نظر الحسين!

وقيل إن الحسين لقى الشاعر الفرزدق فسأله عن الناس فقال له:

«قلوب الناس معك، وسيوفهم مع بنى أمية، والقضاء ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء».

فقال له الحسين:

صدقت . . لله الأمر من قبل ومن بعد يفعل ما يشاء، كل يوم ربنا فى شأن، إن نزل القضاء بما نحب فنحمد الله على نعمائه وهو المستعان على إداء الشكر، وإن حال القضاء دون الرجاء فلم يتعد من كان الحق نيته، والتقوى سريرته».

ويقول كُتّاب سيرة الإمام الحسين إنه كان عندما يلح عليه الناس بالرجوع إلى مكة، ولا يغامر بالسفر إلى هذه البلاد التى تخاذلت عن نصره أبيه وأخيه، وأنهم لاأمان لهم، كان يقول لهم:

إنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام قد أمرنى فيها بأمر وأنا ماض له، وعندما يسألونه ما هو؟

كان يقول لهم:

لاأحدث به أحدا حتى ألقى ربى عز وجل .

وهكذا أخذت الأحداث تأخذ طريقها بسرعة، عندما أخذ الإمام الحسين يتقدم نحو كربلاء، ولم يعرف مدى تخاذل الناس وهربهم من المواجهة. . لم يكونوا جادين، أو غلبهم الخوف عن مناصرة الحسين.

كان الحسين قبل أن يعلم بمقتل ابن عمه مسلم قد أرسل رسالة إلى أهل الكوفة يحملها قيس بن مسهر العيدادى، يشكرهم على حسن اجتماعهم إليه ويخبرهم بأنه فى الطريق إلى الكوفة، وأنه خرج منها يوم الثلاثاء لثمان مضين من ذى الحجة يوم التروية.

وقال لهم:

«إذا قدم إليكم رسولى فاكتموا أمركم وجدوا فإنى قادم عليكم فى أيامى هذه إن شاء الله تعالى والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»

وما أرسل لهم هذا الكتاب إلا بعد أن وصله خطاب ابن عمه عن اجتماع الناس حوله، ومبايعتهم له، وطلب منه الحضور إلى العراق، وما كان مسلم بن عقيل عندما طلب منه الإمام الحسين الحضور إلى العراق يعرف أن هؤلاء الناس سوف يغدرون به، وسوف يبتعدون من حوله، وسوف يتركونه لمصيره المحتوم، وأنه سوف تفصل رأسه عن جسده، ويلقى بها من أعلى القصر، وهم بين خائف مرتجف، أوهارب ينشد السلامة والبعد عن مواجهة الأحداث، وأن كلماتهم المعسولة عن البيعة للحسين لم يكونوا جادين فيها، أو على الأقل لم يكونوا على استعداد للموت أو الجهاد فى سبيلها.

قمة الوحشية

لقد قبض على قيس حامل كتاب الحسين عند القادسية وأرسله الحصين بن نمير إلى ابن زياد، وعندما جئ به إلى ابن زياد أمره أن يصعد إلى أعلى القصر، ويلعن الكذاب ابن الكذاب علىِّ ابن أبى طالب وابنه الحسين وخرج الرجل إلى أعلى القصر، وإذا بالناس ينظرون.. فإذا به يحمد الله ويصلى على النبى ويقول:

أيها الناس: إن هذا هو الحسين بن علىٍّ خير خلق الله، وهو ابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا رسوله إليكم، وقد فارقته بالحاجر عن بطن ذى الرمة فأجيبوه واسمعوا له واطيعوا».

ولم يكد يمضى فى خطابه حتى أمر ابن زياد أن يدق عنقه بدفعه من أعلى القصر!

ويتكرر هذا المشهد المأساوى عندما يطلب ابن زياد من رجل اسمه عبد الله بن بقطر أن يسب الحسين وأباه، ولكن الرجل لايسعفه لسانه، ويأبى عقله وقلبه أن يلعن سبط رسول الله فيندفع ليلعن زياد والذى ولاه فما كان منهم إلا أن ألقوه من أعلى قصر الحكم فى الكوفة، ولكن الرجل سقط ومازال فيه بقية من أنفاس تتردد، فإذا بابن زياد يأمر بذبحه وهو فى هذه الحالة بين الموت والحياة !!!

بشاعة ولؤم وخسة، وانتقام قذر، لاعن مبادئ يدين بها هؤلاء الناس، فما عرفوا يوما المبادى ولافهموا معنى القيم، ولكنها المصالح العاجلة، وكلاب السلطة الذين لا يتورعون عن عمل ما يغضب الله فى سبيل مصالح دنيوية زائلة، وسلطة لابد أن تتلاشى، وتورط فيما لايوجب كل هذه الوحشية . .

ولكنها النفس الإنسانية عندما يسكنها الظلام، ويعربد فى أعماقها الجشع، ويستهويها الضلال.

وعلم الحسين بمقتل مسلم.

وعندما استشار أصحابه، أشار بعضهم عليه بالرجوع إلى مكة، وأشار البعض الآخر بضرورة الانتقام والثأر لمقتل مسلم.

ولكن الحسين أوضح لهم الصورة، واعترف لهم بخذلان شيعته له، وأن من يريد أن ينصرف فعليه أن ينصرف .. ونظر الحسين حوله وقد انصرف عنه الناس ولم يبقى منهم إلا آل بيته وعدد قليل من الأنصار.

موقف الحسين

والانسان يحار حقيقة من موقف الحسين .!

لماذا سارع بالخروج من مكة إلى الكوفة؟

وما حساباته التى بنى عليها هذا الخروج؟

لقد نصحه أصحاب الرأى السديد فى مكة بعدم الخروج ولكنه لم يستجب لهذه النصائح!

وطلب منه عبد الله بن الزبير أن يبايعه فى مكة أو يقوم الحسين بمبايعة عبد الله بن الزبير بها، وله مكانته، ولكن لم يعر هذا الرأى انتباها.

لو أخذنا الأمور بمنطق الحوادث التاريخية فالنتيجة معروفة وهى استحالة انتصار الحسين على يزيد، لأن يزيد يملك السلطة ويملك الرجال الذين هم أطوع له من الخاتم فى أصبعه، ويملك الولاة والجيوش التى يمكن أن يوجهها إلى خصمه ولايملكون معصيته،

والحسين لم يكن معه إلا هذا العدد الضئيل من آل بيته وبعض الذين آثروا الرحيل معه حبا له ولآل البيت، ولكنهم لا يستطيعون أن يقوضوا الدولة الأموية وهى فى أوج قوتها وفتوحاتها فى الشمال الأفريقى، وهيمنتها على الشام والعراق!

كما أن الإمام الحسين يعلم علم اليقين أن أهل العراق اجهدوا والده الإمام علىٍّ بن أبى طالب إجهادا شديداً وكانوا يناقشونه فى كل الأمور صغيرها وكبيرها، حتى ضاق بهم ذرعا من كثرة تفرق آرائهم وخضوعهم لأهوائهم..!

لقد قال لهم الإمام علىٍّ عندما رأى تخاذلهم عن مواجهة جيوش معاوية، وكثرة ترددهم:

«عباد الله.. مالكم إذا أمرتكم أن تنفروا إثاقلتم إلى الأرض. أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة، وبالذل والهوان من العز، وكلما ندبتكم إلى الجهاد دارت أعينكم كأنكم من الموت فى سكرة.. وكأن قلوبكم مألوسة فأنتم لا تعقلون، وكأن أبصاركم كمه فأنتم لا تبصرون .. لله أنتم!

ما أنتم إلا أسود الثرى فى الدعة وثعالب رداغة حين تدعون إلى البأس، ما أنتم لى بثقة سجيس الليالى، ما أنتم بركب يصال بكم، ولا ذوى عزة يعتصم إليه، لعمر الله لبئس حشاش الحرب أنتم، أنكم تكادون ولا تكيدون، وتنتقص أطرافكم ولا تتحاشون، ولا ينام عنكم وأنتم فى غفلة ساهون.

ولكن خطب الإمام عليٍّ، وحثهم على الجهاد لم تزدهم إلا تخاذلا. . فقد آثروا السلام. . وآثروا الدعة، وآثروا البعد عن المعارك . . حتى ضاق بهم وضاقوا به!.

فهل كان يخفى على الحسين هذا؟

لقد كان مع والده، ومشاركا له فى معاركه، وكان يعرف بلا شك موقف أهل العراق معه. . ويعرف دورهم جيدا، فهم الذى خذلوه. . وهم الذين لم يقفوا معه حتى النهاية. . ولقد عرف تطور الأحداث كلها منذ تولى والده الخلافة وما فعله معاوية بتعليق قميص عثمان الملطخ بالدماء، وأصبع زوجته نائلة التى قطعت وهى تدافع عن زوجها، وكيف استطاع معاوية بهذه الحيلة وبحجة الأخذ بثأر عثمان، الذى تقاعس الإمام عليٌّ عن الأخذ به فى رأيه، استطاع معاوية أن يحشد الناس حوله، وجعلهم فى الشام يتعاطفون معه، خاصة أنه يحكمهم منذ خلافة عمر بن الخطاب. . وانطلت هذه الحيلة على أهل الشام فكانوا أطوع له من الخاتم فى أصبعه كما يقولون، على عكس اتباع عليٍّ الذين انشقوا عليه، وخذلوه. . فكان منهم الخوارج، وكان منهم المتهاون فى حق نفسه وحق خليفته، فرجحت كفة معاوية !.

لا أعتقد أن كل هذه الأمور كانت تخفى على الإمام الحسين، فقد كان معروفا بشدة الذكاء والشجاعة وفهم مجريات الأمور. !

فلماذا إذن خرج رغم كل هذه التجارب التى مرت به فى حياته وحياة أبيه؟

بل إن عبد الله بن جعفر طلب من عمر بن سعيد بن العاص والى يزيد على مكة أن يرسل فى أثر الحسين من يطالبه بالعودة إلى مكة ليعيش فيها دون أن يتعرض لأى أذى أو حساب، وحتى لا تتفاقم الأمور، ويصبح من العسير حلها ، وأرسل له عمر بالفعل كتابا يطالبه بالعودة مع عبد الله بن جعفر وأخيه يحيى بن سعيد . . كتب إليه والى يزيد على مكة:

«بسم الله الرحمن الرحيم»

من عمر بن سعيد إلى الحسين بن علىٍّ، أما بعد فإنى أسال الله أن يصونك عما يوبقك، وإن يهديك لما يرشدك، بلغنى إنك قد توجهت إلى العراق وإنى أعيذك بالله من الشقاق، فإنى أخاف عليك الهلاك، وقد بعثت إليك عبد الله بن جعفر ويحيى بن سعيد فاقبل إلىَّ معهما، فإن لك عندى الإمان والصلة والبر وحسن الجوار. لك الله علىٍّ بذلك شهيد، وكفيل ومراع ووكيل والسلام عليك».

ورد عليه الإمام الحسين بكتاب هذا نصه :

أما بعد. .

فإنه لم يشاقق الله ورسوله من دعا إلى الله عز وجل وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين، وقد دعوت إلى الأمان والبر والصلة، فخير الأمان أمان الله، ولن يؤمن الله يوم القيامة من لم يخفه فى الدنيا، فنسأل الله مخافة فى الدنيا توجب لنا أمانا يوم القيامة. .

فإن كنت نويت بالكتاب صلتى وبرى فجزيت خيرا فى الدنيا والآخرة والسلام».

إذن كان الإمام عازما عى المواجهة . . مهما كانت الصعوبات التى سيلاقيها، وليس هناك تعليل عقلى لهذا المسيرة إلا أن الإمام الحسين كان يسير إلى قدره، مدفوعا بإيمانه بما رآه فى منامه وكرره دائما . . كلما ألح عليه البعض فى العودة والبعد عن الدخول فى معركة لن يكون النصر من نصيبه كان يقول:

إنى رأيت رؤيا فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمرنى فيها بأمر أنا ماض له ولا يذكر لأحد تفاصيل هذ الرؤيا، بل كان يقول:

- ما حدثت به أحدا، وما أنا محدث بها أحدا حتى ألقى ربى.

أكان على علم أنه سيلقى حتفه وتكتب له الشهادة، ولا راد لقضاء الله، ولابد أن يواجه هذا التضاد وأن يذهب إلى ربه شهيداً. .؟!

ويقول الأستاذ العقاد فى كتابه عن الحسين تحت عنوان خطأ الشهداء:

«خروج الحسين من مكة إلى العراق حركة لايسهل الحكم عليها بمقياس الحوادث اليومية، لأنها حركة من أندر حركات التاريخ فى باب الدعوة الدينية أو الدعوة السياسية. . لا تتكرر كل يوم ولا يقوم بها كل رجل ولا يأتى الصواب فيها- إن أصابت- من نحو واحد

ينحصر القول فيه ولا يأتى الخطأ فيها- إن أخطأت- من سبب واحد يمتنع الاختلاف عليه.

وقد يكون التصرف فيها بين أصوب الصواب وأخطا الخطأ فرقا صغيرا من قبل المصادفة والتدقيق، فهو خليق أن يذهب إلى النقيضين.

هى حركة لايأتى بها إلا رجال خلقوا لأمثالها فلا تخطر لغيرهم على بال، لأنها تعلو على حكم الواقع الغريب الذى يتوخاه فى مقاصده سالك الطريق اللاحب والدرب المطروق.

هى حركة فذة يقدم عليها رجل أفذاذ، من اللغو أن تدينهم بما يعمله رجال من غير هذا المعدن وعلى غير هذه الوتيرة .. لأنهم يحسون ويفهمون ويطلبون غير الله يحسه ويفهمه ويطلبه أولئك الرجال.

هى ليست ضربة مغامر من مغامرى السياسة، ولاصفقة مساوم من مساومى التجارة، ولاوسيلة متوسل ينزل على حكم الدنيا وتنزل الدنيا على حكمة، ولكنه وسيلة من يدين نفسه ويدين الدنيا برأى من الآراء هو مؤمن بوجوب إيمان الناس به دون غيره، فإن قبلته الدنيا قبلها وإن لم تقبله فسيان عنده فواته بالموت أو فواته بالحياة، بل لعل فواته بالموت أشهى إليه.

هى حركة لا تقاس إذن بمقياس المغامرات ولا الصفقات ولكنها تقاس بمقياسها الذى لا يتكرر ولايستعاد على الطلب من كل رجل أو فى كل أوان» أ. هـ.

وكان العقاد يرى أن الحكم فى صواب الحسين وخطئه يرجع إلى أمرين لايختلفان باختلاف الزمان وأصحاب السلطان، وهما البواعث النفسية التى تدور على طبيعة الإنسان الباقية، والنتائج المقررة التى مثلت للعيان باتفاق الأقوال.

ويرى الأستاذ العقاد من خلال هذين المقياسين أن حركة الحسين فى خروجه على يزيد بن معاوية أنه أصاب.

لماذا؟

يجيب العقاد:

أصاب إذا نظرنا إلى بواعثه النفسية التى تهيمن عليه ولا يتخيل العقل أن تهيمن عليه بواعث غيرها.

وأصاب إذا نظرنا إلى نتائج الحركة كلها نظرة واسعة، ولايستطيع أن يجادل فيها من يأخذ الأمور بسنة الواقع والمصلحة أو من يأخذ الأمور بسنة النجدة والمروءة.

ويتساءل العقاد من البواعث النفسية التى قامت بنفس الحسين يوم دعى فى المدينة بعد موت معاوية لمبايعة ابنه يزيد؟

ويرى أنها بواعث تدعوه كلها أن يفعل ما فعل ولا تدعو مثله إلى صنيع غير ذلك الصنيع.

وخير لبنى الإنسان ألف مرة أن يكون فيهم خلق كخلق الحسين

الذى أغضب يزيد بن معاوية، من أن يكون جميع بنى الإنسان على ذلك الخلق الذى يرضى به يزيد.

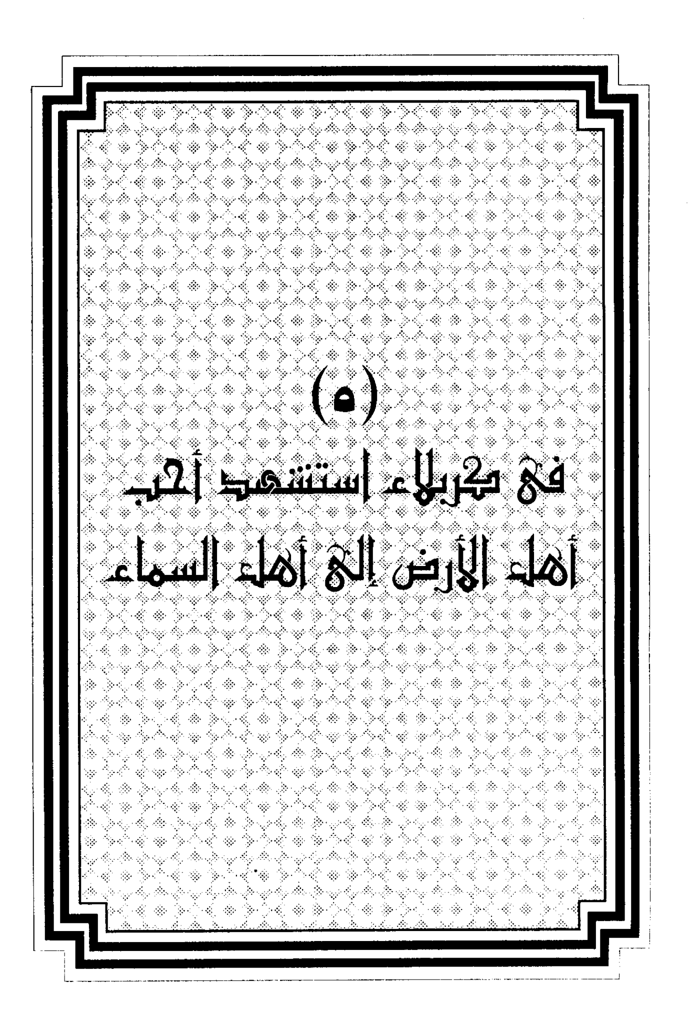
الطريق إلى كربلاء

مهما يكن من أمر فقد خرج الحسين فى طريقه إلى الكوفة، ورغم أنه لم يجد الأنصار.. وهرب الذين وعدوه بالبيعة والالتفاف حوله ونصرته.. ولم يبقى معه إلا أولو العزم من أصحابه وآل بيته لم يكن أمامه أن يتراجع .. فقد وضعته الأقدار فى هذا الطريق.. ليكون دمه محركا للأحداث من بعده، وهذا ما حدث بالفعل، فقد تطورت الأحداث تطورا أدى فى النهاية إلى تقويض حكم بنى أمية ليأخذ التاريخ مساراً آخر.

وماكانت رؤياه للرسول والتى لم يفصح عنها وعن تفاصيلها إلا دافعا لأن يؤدى دوره، وتكون نهاية حياته الشهادة..

ويظل على مدى تتابع الحقب والأزمان رمزا للشجاعة النادرة التى تقاوم الطغيان لوجه الله ودون حساب للمكسب الدنيوى .. وإنما يبتغى الأجر من الله .

ولكن كيف تطورت الأحداث بعد ذلك ؟



(٥)

في كربلاء استشهد أحب أهل الأرض إلى أهل السماء

واصل الإمام الحسين سيره حتى بعد أن علم بمقتل ابن عمه مسلم بن عقيل، وبعد أن عرف أن الذين أرسلوا إليه ليبايعوه قد انفضوا عنه، وأن بعضهم قد انضم إلى جيش ابن زياد. . إنه يتجه نحو مصيره!

وربما يكون الإمام الحسين قد فكر بأن طالبيه لن يتركوه حتى ولو عاد إلى مكة، فإنهم سوف يتعقبونه ويخيرونه بين البيعة والموت!

فآثر الفارس النبيل الموت على أن يقر باطلا، ويعترف بما لا يؤمن به . . إنه ليس إنسانا عاديا. . إنه سليل بيت النبوة. . تربى على أن يقول الحق ولو أنفده الحق حياته!

وبدأت النذر

وبدأت النذر. . عندما بدأت طلائع جيش ابن زياد تتصدى له عند جبل ذى حسم، وتضيق عليه الخناق، ومطالبته أن يذهب إلى ابن زياد ويعطى البيعة ليزيد !

هل قطع آلاف الأميال من مكة يوم غادرها لثمانية مضين من ذى الحجة . . وكان هذا اليوم يوم الثلاثاء، وكان موافقا ليوم التروية فى سنة ستين من الهجرة . . هل قطع كل هذه المسافة ليبايع يزيد ابن معاوية!!

لقد جاء إليه الحر بن يزيد فى ألف من الجنود محاولا أن يأخذه إلى قصر ابن زياد، ليأخذه ابن زياد بدوره إلى يزيد بن معاوية ويرى فيه رأيه!

ولم يكن قد صدر له الأمر بقتال الحسين.

ولم يكن الحر بن يزيد راغبا فى قتال الحسين.. انه يعرف منزلته ومكانته من رسول الله وكان بوده لو انتهى الأمر بمبايعة الحسين ليزيد وتنتهى المشكلة بلا قتال أو سفك دماء!

وأى دماء؟

إنها دماء آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم الذى أخرج الناس من الظلمات إلى النور، وأن الصلاة عليهم فى كل صلاة شرط لصحة الصلاة؟

فكيف يصلون عليهم ويقتلونهم؟

أمر بالغ الغرابة يستعصى على الفهم...!

هل هو الولاء لسلطان بنى أمية والخوف من بطشهم؟

إن هذا الولاء حتى لو صح، وهذا الخوف حتى لوكان حقيقة لا يبيح لهم الغطرسة والخسة والنذالة التى بدت أثناء حربهم للحسين لأن ما فعلوه تشيب لهوله الأبدان..

كان لقاء الحسين بطلائع جيش يزيد فى الصباح وعندما جاء وقت صلاة الظهر، أمر الحسين الحجاج بن مسروق الجعفى للأذان.. وعندما أتم أذانه وقف الحسين يخاطب من جاءوا للنيل منه.. فقال بعد أن حمد الله واثنى عليه:

أيها الناس:

إنها مقدرة إلى الله عز وجل وإليكم، إنى لم آتكم حتى أتتنى كتبكم، وقدمت علىَّ رسلكم، أن أقدم علينا فإنه ليس لنا إمام، لعل الله يجمعنا بك على الهدى، فإن كنتم على ذلك فقد جئتكم، فإن تعطونى ما اطمئن إليه من عهودكم ومواثيقكم أقدم مصركم، وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمى كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذى أقبلت منه إليكم.

ولكنهم لاذوا بالصمت. . !

وقال الحسين للحر بن يزيد: هل تصلى بأصحابك وأصلى بأصحابى؟

قال الحر: لا . . بل تصلى أنت ونصلى بصلاتك.

وتمضى الساعات ثقيلة الخطى . . وتصلى صلاة العصر، ويدعو الحسين أصحابه إلى السير، ولكن الحر حال بينه وبين ما يريد، وأخبره أنه لم يؤمر بقتاله، وإن عليه أن يذهب إلى ابن زياد، ولكن الحسين رفض أن يتبع الحر إلى زياد. وسار ركب الحسين، وعلى يساره سار ركب الحر بن يزيد وكان الحر يدعو الله فى سريرته ألا يضطر إلى قتال الحسين!

وفى الطريق . . وعند (البيضه) . . توجه الحسين إلى أصحابه وأصحاب الحر، بهذه الخطبة بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

أيها الناس. . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « من رأى سلطانا جائرا مستحلاً لمحارم الله، ناكثا لعهد الله، مخالفا

لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل فى عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقا على الله أن يدخله مدخله.

ألا وأن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفئ، وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله، وأنا أحق من غيرى، فقد أتتنى كتبكم، وقدمت على رسلكم ببيعتكم، أنكم لا تسلمونى ولا تخذلونى، فإن أتممتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم، فانا الحسين بن على وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، نفسى مع أنفسكم، وأهلى مع أهليكم، فلكم فىَّ أسوة.

وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم، وخلعتم بيعتى من أعناقكم فلعمرى ما هى لكم بنكر، لقد فعلتموها بأبى وأخى وابن عمى مسلم، والمغرور من اغتر بكم، فحظكم أخطأتم، ونصيبكم ضيعتم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، وسيغنى الله عنكم.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

سمع الحر بن يزيد ذلك فتقدم للحسين وقال له:

- يا حسين إنى أذكرك الله فى نفسك، فإنى أشهد لئن قاتلت لتقتلن، ولئن قوتلت لتهلكن فيما أرى.

فقال له الحسين:

- أفبالموت تخوفنى.. ما أدرى ما أقول لك، ولكن أقول كما

قال أخو الأوس لابن عمه، لقيه وهو يريد نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له:

- أين تذهب ؟ فإنك مقتول!

فقال:

سأمضى وما بالموت عار على الفتى
إذا ما نوى حقا وجاهد مسلما
وآسى الرجال الصالحين بنفسه
وفارق مبثورا يغش ويرغما
فإن عشت لم أندم، وإن مت ألم
كفى بك أن تعيش وترغما

وظل الحر بن يزيد حاجزا بين الحسين وبين البادية، بل أخذ يدفعه إلى الكوفة، إلى أن وصل الركب(نينوى) فجاءت إلى الحر رسالة من ابن زياد يأمره فيها أن ينزل الحسين بالعراء.. بعيدا عن الماء حتى يأتى له أمر آخر.

التخطيط لقتل الإمام الحسين

أحسن أصحاب الحسين أن هؤلاء القوم لن يتركوهم وأنه لا أمل فى التفاوض معهم، وأنهم ينفذون تعليمات ابن زياد، وآثروا القتال قبل أن يأتى مددًا جديدًا إلى أعدائهم، ولكن الحسين كان من رأيه ألا يبدأ هو بالقتال!

وابن زياد بالكوفة يخطط لقتل الإمام الحسين . . بعد أن أخذ يتوعد الناس والخارجين على بنى أمية .

وكان هناك جيش تعداده أربعة ألاف مقاتل كان معدا لقمع ثورة قامت ضد الأمويين فى بلاد الديلم بقيادة عمر بن سعد بن أبى وقاص، وقد أخذ ابن زياد يمنى عمر بن سعد بحكم الرى بعد القضاء على ثورتهم، وبعد التخلص من الحسين!

وأخذ ابن سعد يفكر فى الأمر، هل يقاتل الحسين على ما فى هذا القتال من خسران دينه، أم يرفض الأمر ولا داعى لحكم (الرى) أخذ يقلب الأمر وآثر الدنيا على الآخرة ضاربا عرض الحائط بنصيحة حمزة بن المغيرة بن شعبه :

«والله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض لو كان لك خير من أن تلقى الله بدم الحسين» .

وعندما كان الصباح وذهب لمقابلة عبيد الله بن زياد، خيره بين مقاتلة الحسين أو فقدان(الرى) . . فوافق عمر بن سعد أن يتجه صوب الحسين ومعه جنوده، الذين حاول بعضهم الفرار حتى لا يشارك فى دم الحسين، ولكن ابن عبيد الله قتل بعضهم، فانساقوا يحثون الخطى حتى أدركوا الحسين فى كربلاء فى شمال غربى الكوفة . . وقد كان ذلك الثانى من المحرم عام واحد وستين من الهجرة .

وبينما كان عمر بن سعد يحيط بالحسين بجيشه الجرار، وليس مع الحسين إلا ٧٢ فارسا . . منهم أربعون فارسا راكباً . . كان هناك فى الكوفة ابن زياد يخطط مع شمر بن ذى الجوشن، كيف يقضون على الحسين. وآل بيت رسول الله، منتهكا حرمة البيت النبوى لايحسب إلا حساب يزيد بن معاوية، وكيف يقدم له رأس الحسين، كما حدث للنبى يحيى عليه السلام عندما قطع رأسه من أجل بغى من بغايا أورشليم! .

كل هذا الحقد الذى كان فى قلب عبيد الله بن زياد للحسين يذهل كل من يقرأ أحداث مجزرة كربلاء. . فقد كان من الممكن أن يتصرف تصرفا آخر أقل خسة ووحشية ويرضى أسياده المزيفين على عرش الخلافة فى دمشق، ولكن هذه الخسة والدناءة ربما ترجع إلى أن هذا الرجل كان مجهول النسب، وأنه لامقارنة بينه وبين الإمام الحسين. .

الإمام الحسين سليل بيت النبوة، وابن سيدة أهل الجنة فاطمة الزهراء، وابن علىٍّ بن أبى طالب رابع الخلفاء الراشدين، وكان يلقبه الرسول بأنه باب العلم، وهو حفيد أعظم رسل الله. . فكيف يطاوله هذا الدعى وهوالمجهول النسب، والذى الحق معاوية نسب أبيه به، عندما خدم زياد معاوية خدمة العبيد للأسياد! وعلى الجانب الآخر من أعداء الحسين كان شمر بن ذى الجوشن، صاحب الوجه الكريه. ويقول الرواه أنه عندما جاء كتاب عمر بن سعد إلى ابن

زياد يقول مضمونه أنه ما جاء إلا بعد أن أرسل له أهل الكوفة للقدوم، كما أرسلوا له رسلاً يدعونه إلى ذلك وأن الحسين قال:

فأما إذا كرهونى فبدا لهم غير ما أتتنى به رسلهم فأنا منصرف عنهم.

فكان تعليق ابن زياد:

الآن إذا علقت مخالبنا به.. يرجو النجاة ولات حين مناص.

وكتب إلى عمر بن سعد:

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد..

فقد بلغنى كتابك، وفهمت ماذكرت، فأعرض على الحسين أن يبايع ليزيد بن معاوية هو وجميع أصحابه، فإذا فعل ذلك رأينا رأينا والسلام..

أرض الله

وقال الرواة كلاما كثيرا فى المفاوضات التى حدثت بين الحسين وعبيد الله، وقالوا فيما قالوا أن الحسين رغب العودة إلى المكان الذى جاء منه، وأنه عرض أن يذهب ليضع يده فى يد يزيد ابن معاوية ولكنه حيل بينه وبين ذلك.. وهذا الكلام لايصدقه العقل، فماكان الحسين ليخرج من مكة وهو يعلم تماما أن ما أقدم عليه سيؤدى إلى استشهاده، ثم يعرض المبايعة ليزيد!!

أغلب الظن أن هذه فرية ادعاها مؤيدو بنى أمية حتى يوحوا للناس، أنه لاشرعية لما يدعو إليه الحسين وبنوه من أحقيتهم للخلافة وقد حدث عبد الرحمن بن جندب عن عقبة بن سمعان قال:

«صحبت حسينا فخرجت معه من المدينه إلى مكة، ومن مكة إلى العراق، ولم أفارقه حتى قتل، وليس من مخاطبته الناس كلمة بالمدينة، ولا بمكة،ولا فى الطريق، ولا بالعراق، ولا فى عسكره إلى يوم مقتله، إلا وقد سمعتها. ألا والله ما أعطاهم ما يتذاكر الناس وما يزعمون، من أن يضع يده فى يد يزيد بن معاوية، ولا أن يسيروه إلى ثغر من ثغور المسلمين ولكنه قال:

«دعونى فلأذهب إلى الأرض العريضة حتى ننظر ما يسير أمر الناس».

وما رواه عبد الرحمن بن جندب هو ما يتفق مع منطق الأحداث وسيرها.. وأيضا ما يتناسب مع فكر الإمام الحسين صاحب المبدأ الذى لايكرهه على تركه أحد حتى لو سفك دمه، حتى أن أخاه الحسن كان يعرف فيه مضاءة عزمه وقد نصحه قبيل موته يقول :

«إن أباك قد استشوف لهذا الأمر فصرفه الله عنه، ووليها أبو بكر، ثم استشوف لها، وصرفت عنه إلى عمر، ثم لم يشك فى وقت الشورى أنها لا تعدوه فصرفت إلى عثمان، فلما قتل عثمان بويع بها، ثم نوزع حتى جرد السيف فما صفت له، وإنى والله مأرى أن يجمع الله فينا النبوة والخلافة، فلا أعرفن بما استخفك سفهاء الكوفة فأخرجوك».

رغم كل ذلك.. فقد خرج الحسين.. تدفعه قوة قاهرة فى نفسه، ألا يتفرج على ظلم الظالمين، وألا يقف مكتوف اليدين، وقد ابتعدت السلطة الأموية عن الكتاب والسنة وسيرة الراشدين من الخلفاء، فهل يمكن للحسين بعد موقفه هذا، وإيمانه العميق بقضيته أن يعرض الصلح أثناء محنة كربلاء لأن يضع يده فى يد يزيد؟!

الناس عبيد الدرهم والدينار

وقد كان يعرف حق المعرفة أيضا أن الناس عبيد الدرهم والدينار والزلفى إلى الحكام ومن بيدهم مقاليد الأمور، ومع ذلك فقد أصر أن يؤدى دوره حتى النهاية إرضاء لضميره.. مهما كانت صعوبات الطريق.

ومضت الأحداث سريعة الخطى عمر بن سعد ينفذ أمر ابن زياد بمنع الحسين وأصحابه من الاقتراب من الماء تمهيدا لموتهم عطشاً!

والحسين العظيم بعد أن أيقن تماما نية القوم كان يعرف تماما أنه هو المقصود لاغيره من أصحابه.

نذر الحرب

واقتربت نذر الحرب.. وطلب الحسين بعد أن أصر القوم على مقاتلته إلى تأجيل القتال للغد.. والغد هذا هو العاشر من المحرم سنة ٦١هـ.

وكان يرمى من هذا التأجيل أن ينصح أصحابه بالنجاة بأنفسهم حين يظلم الظلام، لأنه هو الذى يهدفون إلى سفك دمه.. ومصرون على ذلك ولا يهمهم أمر الآخرين.. وأن على أصحابه أن يتفرقوا وخاصة بعد أن علموا يقينا تخاذل أهل الكوفة الذين

ألحوا عليه فى الحضور وتخاذلوا عنه، وتركوه يواجه المصير الذى يعرفة الإمام الحسين جيدا . . قال الإمام الحسين لأصحابه مساء هذا اليوم الحزين بعد أن حمد الله وأثنى عليه!

أما بعد:

فانى لا أعرف أصحابا خيرا من أصحابى . . ولا أهل بيت أبر وأوصل من أهل بيتى فجزاكم الله خيراً فقد بررتم وأعنتم، وإنكم لتعلمون أن القوم لايريدون غيرى، وأن يومى معهم غدا، وإنى قد أذنت لكم جميعا فانطلقوا فى غير حرج . . وليس عليكم منى ذمام! وهذا هو الليل قد غشيكم فانطلقوا فى سواده قبل أن يطلع النهار وانجوا بأنفسكم.

بمثل هذا الموقف الشجاع واجه الإمام الحسين أصحابه . . ووسط هذا الهول انكشف معدن الناس . . فإذا كان الناس مع الجانب الآخر قد آثروا الدنيا وما عند السلطان، فإن الناس فى جانب الحسين قد آثروا المبادئ وما عند الله، حتى نرى العباس بن علىٍّ أخاه لأبيه يقول للحسين:

- معاذ الله والشهر الحرام . . وماذا نقول للناس إذا رجعنا إليهم . . نقول: تركنا سيدنا وابن سيدنا غرضا للنبال، وذرينة للرماح، وحرزًا للسباع وفررنا عنه رغبة فى الحياة؟!

معاذ الله . . معاذ الله . . بل نحيا بحياتك ونموت معك.

* * *

الناس ينصتون فى هذه الليلة الحزينة . . ليلة التاسع من المحرم إلى الإمام الحسين وهو يطلب منهم الهروب من أهوال الغد، لأنه يعلم أن هذه الأعداد الضئيلة سوف تواجه جيشا يفوقهم عددا وعتاد مئات المرات، وليس فى قلوب هؤلاء الأعداء أى نبض من أريحيه أو صحوة من ضمير، أو تذكر لجده العظيم. . نبى الرحمة، الذى عفا عن أعدى أعدائه، يوم دخل مكة فاتحاً . . مكة التى طالما ناصبته العداء، وألهبت أصحابه سوط عذاب وقال لهم:

- ماذا تظنون أنى فاعل بكم؟

- قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم.

قال لهم:

اذهبوا فأنتم الطلقاء!

وكان من طلقاء هذا اليوم أبو سفيان بن حرب. .جد يزيد. . المتربع على عرش الخلافة ! لم يجد حفيد نبى الرحمة من قلوب هؤلاء الذين يدينون بدينه ويقتلون ورثته وأحفاده. . فى تلك الليلة المشهودة قفز سؤال من شاب فى مقتبل العمر. . وهو ابن الإمام الحسين:

- ألسنا على الحق يا أبتاه؟

رد عليه الإمام الحسين:

- بلى والذى أنفسنا بيده.

فصاح سليل البيت النبوى:

- إذن والله لا نبالى.

وعلى مثل هذا الموقف وقف جميع أصحاب الحسين.. لقد قرروا أن يربطوا مصيرهم بمصيره.. وباختصار قرروا الاستشهاد.

وقد غفا الحسين فرأى النبى عليه السلام يقول له:

«إنك تروح إلينا!»

وعندما قص هذه الرؤيا على أخته زينب رضى الله عنها قالت:

- يا ويلتا.

- ليس لك الويل يا أخيه.. اسكتى رحمك الرحمن.

ويروى عن العلى بن الحسين قوله:

«إنى جالس فى تلك العشية التى قتل أبى صبيحتها، وعمتى زينب عندى تمرضنى، إذا اعتزل أبى بأصحابه فى خباء له وعنده حوى، مولى أبى ذر الغفارى، وهو يعالج سيفه ويصلحه وأبى يقول:

• يا دهر أف عليك من خليل
من صاحب أو طالب قتيل
وإنما الأمر إلى الجليل
كم لك بالأشراق والأصيل
والدهر لا يقنع بالبديل
وكل حى سالك السبيل

وسمعت السيدة زينب رضى الله عنها ما يردده أخوها فقالت:

- واثكلاه ليت الموت أعدمنى الحياة. . اليوم ماتت فاطمة أمى، وعلىٌّ أبى، والحسين أخى، يا خليفة الماضى وثمال الباقى.

قال لها الإمام الحسين:

يا أخيه لايذهبن بحلمك الشيطان.

قالت:

- بأبى وأمى يا أبا عبد الله استقتلت نفسى فداك.

- لو ترك القطا لنام.

معادن الرجال

وقد برز فى هذه الأحداث معادن آل البيت، ومن جاء مع الحسين وآثر الموت على الحياة . . معادن نادرة مجسدة فى هؤلاء الصحاب.

قال له زهير بن القيم:

- والله لوددت أن أقتل ثم أبعث، ثم أقتل، ثم أبعث وهكذا ألف مرة ردءا عن حياتك وحياة هؤلاء الفتيان من أهل بيتك».

وقال مسلم بن عوسجة الأسدى:

- أنحن نتخلى عنك، ولم نعذر إلى الله فى أداء حقك؟ أما والله لا أفارقك حتى أكسر فى صدورهم رمحى، وأضربهم بسيفى ما

لبث قائما بيدى . . ولو لم يكن لى سلاح ، لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك» .

وتحدث أصحابه . . الكل مجمع على الاستشهاد . .

وذهب الحسين إلى خبائه فى انتظار الغد الحزين . . وكان طوال ليله يصلى لله . . وكذلك فعل أصحابه .

أطول يوم فى التاريخ

وأقبل العاشر من المحرم . . بدأه الحسين بصلاة الفجر حيث أم أصحابه ، وطلعت شمس هذا النهار العاشر من المحرم ليكون هذا اليوم أطوال أيام التاريخ ، حيث شهد أدمى المعارك وأشرسها . . وحيث شاهد القلة المؤمنة وهى تحارب الباطل وأهله ، وهى تدرك أن الباطل وإن انتصر اليوم فلن تدوم دولته إلى الأبد .

ورتب الحسين جيشه . . !

وجيشه هذا ٣٢ فارسا وأربعون راجلاً . . !

زهير بن قيس فى ميمنة أصحابه ، وحبيب بن مظاهر فى الميسرة ، وحمل الراية أخوه العباس بن علىٍّ .

ونصب للحسين خيمة يراقب فيها مجرى المعركة قبل أن يدخلها بنفسه مقاتلاً إلى آخر نفس من أنفاسه . . وكان قد أمر أن تضرم نار خلفهم حتى لا يباغته جنود ابن زياد من خلفه . .

وقد رفع الإمام الحسين يده إلى الله مناجيا :

« اللهم أنت ثقتى فى كل كرب. . ورجائى فى كل شدة، وأنت لى فى كل أمر نزل بى ثقة وعدة ، كم من هم يضعف فيه الفؤاد، وتقل فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو، أنزلته بك، وشكوته إليك، رغبة منى إليك عمن سواك، ففرجته وكشفته، فأنت ولى كل نعمة، وصاحب كل حسنة، ومنتهى كل رغبة».

المذبحة

وكان لابد أن تبدأ هذه المذبحة. .

حيث تقدم أصحاب الحسين بعد أن ابتدأوهم بالقتال. . يدافعون عن الحسين. . حتى تساقطوا فى المعركة بعد استبسال فى القتال أشبه بالمعجزات، وهم عطاش بعد أن حرموهم الماء. . ومع ذلك فقد استطاع أنصار الحسين أن ينزلوا الموت بأعدائهم مع كثرة هؤلاء الأعداء . . وفى معركة غير متكافئة . . ودخل الحسين المعركة. . أسدا جسورا. . وفارسا مغوارا. . لايخشى الموت. . وهو يحصد الرءوس، ويعمل فيهم قتلاً. . ولا يستطيعون مواجهة الفارس النبيل، والبعض يخشى مواجهته حتى لا يقابل الله مطالبا بدم سيد الشهداء!

وأخذ الحسين يقاتل طوال يومه. . رغم سقوط الأهل والأحباب والأبناء. . وكان من المشاهد المأساوية والتى تدعو إلى الأعجاب فى

نفس الوقت أن ابن الحسين (علىٍّ) الذى لم يتجاوز التاسعة عشرة من عمره، أخذ يقاتل بشجاعة منقطعة النظير وهو يردد:

« أنا علىٌّ بن الحسين بن علىٍّ . .

ونحن ورب البيت، أولى بالنبى . .

تالله لا يحكم فينا ابن الدعى»

إلى أن سقط شهيداً . .

وتساقط أبناء البيت النبوى الواحد بعد الآخر بعد جهاد رائع وعظيم.

ويرى الحسين ابن أخيه الصغير القاسم بن الحسن يخرج بسيفه . . فتتهاوى عليه السيوف. فيصيح مستنجدا بعمه الإمام الحسين، ويسرع إليه الحسين ويهوى بسيفه على قاتليه فيفرون كالجرذان، وينظر الحسين إلى ابن أخيه الصغير وهو يجود بأنفاسه الأخيرة، وتتساقط الدموع من عينيه:

« عزيز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك، أو يجيبك فلا ينفعك فى يوم كثر واتره وقل ناصره».

ولكنه الحسين . .

إنه يخوض معركة يعرف تماما أن النصر فيما لأعداء الحق والفضيلة وكل القيم النبيلة . . وأن هذا هو قدره . . وهذا هو دوره . . أن يكون دمه منارة تهدى ليالى الحيارى والتائهين . .

لقد وجد الإمام نفسه يقاتل وحيدا فى الميدان.. بعد أن سقط الجميع على أرض المعركة بقى وحده يقاتل وحوشا لا تعرف أنها تحاول قتل أحب أهل الأرض إلى أهل السماء..

ويتكاثر عليه هواة الضلال وأتباع الشيطان، حتى اثخنوه بالجراح، والتفت إليهم الحسين وقال لهم:

«أعلى قتلى تجتمعون.. إنى لأرجو الله أن يكرمنى بهوانكم، ثم ينتقم لى من حيث لا تشعرون».

ويرى عمر بن سعد المشهد، ويسمع صوت السيدة زينب تقول له:

-أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه؟

فيهرب الرجل من نظراتها ويبتعد وقد غلبته الدموع!!

ويأمر شمر بن ذى الجوشن أتباعه بضرب الحسين بالرماح عن بعد.. حتى سقط الحسين مضرجا فى دمائه، بعد أن ضربه زرعة ابن شريك التميمى على يده اليسرى وقطعها .. وتقدم غيره فضربة على عاتقه فسقط فى أرض المعركة.. ولكنه رغم كل هذه الجراح والآلام كان يقوم محاولا القتال، وهم يضربونه بالرماح والسيوف حتى لفظ أنفاسه الأخيرة!

ويقول الرواة أن الحسين عليه السلام عندما قتل وجدوا به آثار ثلاث وثلاثين طعنة وأربع وثلاثين ضربة!!!

وحاول خولى بن يزيد الأصبحى أن يجتز رأسه ولكنه لم يستطع فقد تملكته رعدة، فقال له ابن ذى الجوشن:

فت الله فى عضدك!

وتقدم سنان بن أنس فاجتز رأسه ودفعه إلى خولى بن يزيد.

وهكذا انتهت المعركة بمصرع آل البيت، وبلغ الذين قتلوا من معسكر ابن زياد ثمانية وثمانين رجلا غير الجرحى..

وكان هذا اليوم.. يوم العاشر من المحرم.. يوم عاشوراء.. من أحزن أيام التاريخ.. فما كادت شمسه تميل نحو مغيبها الحزين، وهى تلملم أشعتها التى شاهدت هذه المجزرة، إلا وكانت جثث الضحايا تغطى أرض كربلاء.. ولم تشهد الشمس يوما عصيبا كهذا اليوم.. حيث وسد جسد الإمام الحسين وصحبه على أرض كربلاء.. وقد وسد الجسد الطاهر وأجساد العترة من آل البيت التراب فى اليوم التالى عندما أخذ جماعة من بنى أسد على عاتقهم مهمة مواراتهم التراب!... قاموا بذلك ليلاً تحت أضواء القمر الباهت.. وليصبح هذا المكان مزارا يزار.. يقف الناس أمامه خاشعين أمام جلال البطولة وروعة الاستشهاد.. حيث يوجد الآن المشهد الحسينى الذى يتردد عليه الناس ذاكرين بطولة الشهيد العظيم.. حفيد أعظم رسل الله وبطل كربلاء.


(٦)
الموكب الحزين

حينما لملمت الشمس أشعتها فى مساء اليوم العاشر من محرم من عام ٦١هـ كانت أرض كربلاء متناثر على رمالها جثث أطهر أهل الأرض من أبناء بيت النبوة، ولم يبق إلا النساء وعلى رأسهم أخت الإمام الشهيد السيدة زينب وصبى صغير وهو علىٌّ بن الحسين الذى شاء له القدر أن ينجومن الموت المحقق لمرضه وأن تكون منه ذرية الإمام الحسين .

وسيق آل بيت الرسول الكريم أسرى إلى عبيد الله بن زياد قاتل أبناء النبيين، والذى كان يتباهى بذلك تقربا وزلفى من سلطان بنى أمية .

وتبلغ الخسة مداها حين يأخذون أسراهم ويمرون بهم على جثث الضحايا . . الأمر الذى لم تطق معه السيدة زينب رضى الله عنها صبراً أمام هول الأحداث التى مرت بها، فلم يكف هولاء الناس مالقته السيدة الطاهرة من فواجع وهى ترى أخاها يقتل وتدوس الخيول على صدره، ولم يرحموا ماهى فيه من آلام فوق طاقة البشر، فأبو إلا أن يمروا بهم وسط الشهداء، وعندما رأت هذا المشهد الأليم لم تتمالك وصاحت :

يامحمداه . . يامحمداه . . صلى عليك ملائكة السماء، هذا الحسين بالعراء، مرمل بالدماء، مقطع الأعضاء . . يامحمداه وبناتك سبايا، وذريتك مقتله، تسفى عليها الصبا» .

ويمضى الموكب الحزين إلى قصر ابن زياد .

وزياد قد ملأه الغرور وكأنه حقق انتصار عسكريا كبيرا، وغرته الأمانى حتى أنه أخذ ينكث بقضيب بيده شفتى الحسين والناس حوله، حتى ثار عليه زيد بن أرقم قائلا له:

اعل بهذا القضيب عن هاتين الثنيتين فوالذى لاإله غيره لقد رأيت شفتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على هاتين الشفتين يقبلها .

وعندما بكى الشيخ بعد أن أفصح أمام هذا الطاغية بكلمة حق، فطرده ابن زياد من مجلسه، وخرج الرجل وهو يقول: قتلتم ابن فاطمة، وأمرتم ابن مرجانة، فهو يقتل خياركم ويستعبد شراركم، فرضيتم بالذل. فبعداً لمن رضى بالذل .

ودخل الموكب الحزين على هذا الحاكم الظالم وكأنما ينبوع الخسة عنده لاينفد فقال للسيدة زينب رضى الله عنها :

الحمد لله الذى فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثتكم .

قالت السيدة زينب :

الحمد لله الذى أكرمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم وطهرنا تطهيرا، لا كما تقول أنت إنما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر .

قال : فكيف رأيت صنع الله بأهل بيتك ؟

قالت: جل عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم، فتحاجون إليه وتخاصمون عنده .

قال غاضبا:

قد أشفى الله نفسى من طاغيتك، والعصاة المردة من أهل بيتك.

قالت وقد ملكها الحزن العميق :

لعمرى لقد قتلت كهلى، وأبرزت أهلى، وقطعت فرعى، واجتثثت أصلى، فان يشفك هذا فقد استفيت .

قال : هذه شجاعة، لعمرى كان أبوك شاعرا شجاعا .

قالت: ما للمراة والشجاعة إن لى عن الشجاعة لشغلا ولكن نفسى وماأقول.

ورنا ببصره إلى علىٍّ بن الإمام الشهيد وأراد قتله فتعلقت به عمته السيده زينب وطلبت أن تقتل معه .

وتكررالمشهد عندما يذهبون بالسبايا من آل البيت إلى يزيد بن معاوية ويحملون معهم رءوس الشهداء. . . يبغون الحظوة عنده.

ويقول الرواة أن يزيد قال لمن هرولوا إليه يبشرونه بقتلهم آل البيت :

قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين، لعن الله ابن سميه، والله لو أنى صاحبه لعفوت عنه، فرحم الله الحسين.

وأغلب الظن أن مارواه الرواة عن تأثر يزيد بقتل الحسين وأنه لم يأمر بذلك ولا عرفه إلا عندما جاءته رءوس الشهداء ليس صحيحا. .فليس من المعقول أن يكون حريصا على بيعة الحسين

ويرسل إلى واليه فى المدينة ليأخذ له البيعة منه، ويحرص معاوية بن أبى سفيان قبل ذلك على أهمية أن يبايع الحسين يزيد بالخلافة. .فكل هذا الحرص نابع من مكانة الحسين، وأنه من الممكن أن يواجه الأمويين ويطالب بالأمر له، ليس من المعقول أن يعرف يزيد كل هذه الأهمية للحسين ثم لا يعرف من أمر تحركه شيئا منذ خرج من مكة قاصدا الكوفة، ويفاجأ بأنه ذهب إلى كربلاء وقتل هناك .

وليس من المعقول ولا من المنطق أن يعرف واليه على الكوفة عبيد الله بن زياد بقدوم الحسين ويعد العدة للتصدى له والفتك به دون علم يزيد؟ ليس من المنطقى أن يتصدى له، ويفعل كل مافعل من تلقاء نفسه. . وهو يعرف كم كان يزيد حريصا على أخذ البيعة من الحسين، وإذا كان أهل الحجاز قد عرفوا أن الحسين خرج متوجها إلى العراق. .

وإذا كان أهل العراق قد علموا بقدومه. . فهل كان يخفى على الخليفة نفس هذا الأمر. . وأين ولاته وجواسيسه فى كل الأنحاء.

وهل يمكن أن ينس يزيد ما أمره به أبوه وهو فى ساعة احتضاره بقوله:

انظر حسين بن علىٍّ بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه أحب الناس إلى الناس، فصل رحمه، وأرفق به، يصلح لك أمره، فإن يكن منه شئ فإنى أرجو أن يكفيه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه».

هل يمكن ليزيد أن ينسى وصية أبيه له، وهو الذى نصحه وهو على فراش مرضه الأخير هذه النصيحة لأنه يعلم خطر الحسين ومكانته فى نفوس الناس! ليس من المعقول ألا يكون قد عرف بتحركات الحسين وتوجهه إلى العراق، ولم يعرف ذلك إلا عندما وصل بعض المنافقين وكلاب السلطة يبشرونه بموت الحسين!

ولم يكن الحسين واحدا عاديا من الناس ليس له خطره ولا مكانته، حتى يقتص منه عبيد الله بن زياد، وينتهى من أمره بسهولة ويسر، ولكنه يعرف مكانته ومن هنا فقد أرسل رأسه ورءوس أصحابه ليزيد حتى ينال الحظوة والرضا العالى!!

وإذا حدث ما يرويه بعض الرواة بأن يزيد قال قولته هذه بأنه لم يكن يرغب فى موته، ولو كان مكان ابن زياد ما قتله، فإن هذا يكون من قبيل الدهاء وأكاذيب السياسة.

وقد كان يزيد بن معاوية سياسياً، وكان ذكيا، وكان داهية، وقد اكتسب من أبيه معاوية بن أبى سفيان هذا الدهاء السياسى، رغم ماكان عليه من مجون ومعاقرة الخمر، واللهو والعبث، وضياع وقته فيما لا يفيد.

وكان أيضا شاعرا، نسبوا إليه العديد من القصائد، منها قوله متغزلا:

خذوا بدمى ذات الوشاح، فإننى
رأيت بعينى فى أناملها دمى
ولاتقتلوها إن ظفرتم بقتلها
بلى، خبرَّوها بعد موتى بمأتمى

رجل له هذا الدهاء السياسى ،وله الحس الشعرى، لم يكن أبلها، ولا ساذجا، وإلا فكيف يقول ما قاله على أنه لم يكن ليقتل الحسين لو ظفر به ونصدقه، ولم ترو كتب التاريخ عنه أنه قام بتأنيب عامله عبيد الله بن زياد، أو عمر بن سعد، أو ابن ذى الجوشن أو غيرهم من الذين قاموا بهذه المذبحة البشعة وانتهكوا حرمة بيت الرسول الكريم. . !

ولم يؤثر عنه أنه حتى سألهم لماذا فعلوا ما فعلوه! بل أن الحوار الذى دار بينه وبين آل الحسين، كان فيه اللين ممتزجا بالشدة، وفيه أيضاً التشفى بما حدث مغلفاً بدهاء الساسة. .

لقد قال يزيد عندما رأى رءوس الشهداء:

يفلقن هاما من رجال أعزة

علينا وهم كانوا أعق وأظلما

ولقد قال يزيد لعلىٍّ بن الحسين بعد أن دعاه وأهله إلى الحضور لديه، وكان معه بعض أتباعه:

يا على أبوك الذى قطع رحمى، وجهل حقى، ونازعنى سلطانى، فصنع الله به ما قد رأيت!

قال علىٍّ زين العابدين:

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾

[الحديد: ٢٢]

قال يزيد :

﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾

[الشورى : ٣٠]

ونظر فرأى الحالة السيئة التى كان عليها نساء بيت النبوة وقال :

قبح الله ابن مرجانة، لو كان بينه وبينكم رحم أو قرابة ما فعل هذا بكم ، ولا بعث بكم هكذا . . !!

وتبلغ المأساه ذروتها، يوم يرى أحد الحضور فى هذه الجلسة الحزينة فاطمة بنت الحسين، فطلب من يزيد أن يهبها له!!

فتقول له السيدة زينب رضى الله عنها :

كذبت والله ولؤمت ما ذلك لك ولا له .

وبدل أن يلومه يزيد ويؤنبه وجه كلامه للسيدة زينب قائلا لها :

كذبت والله، إن ذلك لى، ولو شئت أن أفعله لفعلت!!

قالت له :

كلا والله . . ما جعل الله ذلك لك إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا .

ولكن يزيد تمادى فى قهره، وخرج عن كل مألوف عندما قال لها :

إنما خرج من الدين أبوك وأخوك!

قالت له : بدين الله ودين أبى ودين أخى وجدى اهتديت أنت وأبوك وجدك .

ـ [illegible]بت يا عدوة الله؟!

ـ أنت أمير مسلط، تشتم ظالما، وتقهر بسلطانك.

ويبدو أن كلمة السيدة زينب، بأنه ماكان يجرؤ أن يخاطبها بهذا المستوى الهابط من أدب الحوار، إلا لأن له سلطان يقهر به الناس.. فخجل..

وأمر بتجهيز آل البيت للعودة إلى المدينة..! بعد أن دعاهم إلى بيته، حيث قابلهم آل يزيد بمايليق ببيت النبوة.. وأحسن استقبالهم، وبعث من يقوم بحراستهم حتى أبواب المدينة، وعندما أرادوا إكرام هذا الرجل الذى كان يراعى طوال الطريق حرمة آل البيت، ويتودد إليهم ويواسيهم، لم يجدوا ما يكرمونه به، فإذا الرجل يقول لهم إنه فعل ما فعل حبا فى رسول الله وابتغاء المثوبة من الله.

ويقول الرواة: أن يزيد قال لبعض من حوله والرأس الشريف بين يديه:

ـ أتدرون من أين أُتى هذا؟

إنه قال: أبى علىٍّ خير من أبيه، وأمى فاطمة خير من أمه، وجدى رسول الله خير من جده، وأنا خير منه وأحق بهذا الأمر.

فأما أبوه فقد تحاج أبى وأبوه إلى الله وعلم الناس أيهما حُكم له.!

وأما أمه فلعمرى فاطمة بنت رسول الله خير من أمى.

وأما جده فلعمرى ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا بدلا ولا ندا.

ولكنه أُتى من قلة فقهه ولم يقرأ:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]

ومن خلال مسار الأحداث التى مرت يتضح أن معالجة أمر الحسين، وقتاله وقتله من المستحيل أن تكون الأحداث قد تسارعت، مما أدى إلى قتله ـ كما قلنا ـ دون الرجوع إلى يزيد نفسه، ليقول فيه رأيه.

ولكن يزيد ـ كما قلنا أيضا ـ لم يكن بالخليفة الساذج رغم لهوه وعبثه، وأنه أخذ من أبيه الكثير، وأبوه هو الذى رددت الأجيال كلماته الدالة عن بعد نظره، وعمق نظرته للأمور، وقدرته على أن يسوس الناس عندما قال:

لو كان بينى وبين الأخرين خيط ما قطع، إذا شدوا أرخيت، وإذا أرخو شددت!!

ومن قبل هذا الدهاء ما قاله يزيد وهو يودع عليٍّ بن الحسين وهو فى طريقه إلى الحجاز وقال له:

لعن الله ابن مرجانه.

أما والله لو أنى صاحب أبيك ما سألنى خصلة أبدا إلا أعطيته إياها، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض

ولدى، ولكن الله قضى ما رأيت يا بنى! كاتبنى من المدينة وأنه إلىَّ كل حاجة تكون لك.

منتهى الدهاء السياسى.. الذى يقتل القتيل ويمشى فى جنازته كما يقولون!!

ولكن هذا الدهاء خانه يوم أمر بسفك دماء الحسين وآل البيت، كان حقده على الحسين أكبر من دهائه، وأكبر من نصائح أبيه!!

كيف غاب عنه وصية أبيه له:

يا بنى إنى قد كفيتك مئونة الترحال، ووطأت لك أعناق الرجال، فعليك بأهل الشام فأجعلهم الشعار دون الدثار.

وأما أهل العراق فدارهم ما استطعت وإن طلبوا منك أن تعزل عنهم فى كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل رجل واحد خير من سل مائة ألف سيف، ولا تدرى على من تكون الدائرة.

ولست أخشى عليك فى هذا الأمر غير الحسين بن علىٍّ وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير.

فأما الحسين فرجل خفيف، وما أرى أهل العراق إلا مخرجيه، فإن هو خرج عليك وظفرت به فاعف عنه فإن له رحما ومقاماً عظيما، وقرابة من النبى صلى الله عليه وسلم.

وأما ابن عمر فرجل قرقرة الورع، ووقذته العبادة، فإن خليت بينه وبين دينه، خلى بينك وبين دنياك .

وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويروغ منك روغان الثعلب فذاك ابن الزبير فإن هو فعلها فمزقه إربا! إلا أن يلتمس منك صلحاً، واحقن دماء قومك ما استطعت».

كان معاوية.. رجل دولة.. وكان رجل سياسة.. وكان على علم بأقدار الرجال..!

وعندما أوصى ابنه بما أوصى له به كان كأنه يقرأ من كتاب مفتوح.

فالحسين قد خرج عندما جاءته رسائل أهل العراق ولكنهم خذلوه، ولم يراع يزيد ما أوصاه به أبيه من أن يرعى حرمة الحسين لنسبه من رسول الله..

وأما ابن عمر فهو رجل تقى ورع لايريد أن يشق عصا الطاعة ولا عصا الجماعة، فهو مع الناس فيما اتفقوا عليه، والمهم عنده أن يتركوه لعبادته.

أما عبد الله بن الزبير فكان بالفعل كما وصفة معاوية ثعلب ماكر، فكان أمله كما يقول الرواه أن يخلو له الجو، فكان ينصح الحسين بالرحيل إلى العراق، وفى الوقت نفسه يعود بنصحه أن يظل فى مكة ويقول له:

«ولكن إذا شئت أقمت ونحن نناصحك ونبايعك».

كانت خريطة الوضع واضحة المعالم، بيّنة القسمات أمام يزيد.. والصورة ليست فى حاجة إلا إلى حسن السياسة، وصياغة الأمر

بالحكمة، كما أوصاه معاوية.. ولكن لم يفعل ذلك، فقد ضيق الخناق على الإمام الحسين، حتى انتهت حياته فى كربلاء.

وهذه المأساة التى هزت العالم الإسلامى كله عندما وقعت بهذا الشكل البشع؟! حتى أننا نرى معاوية بن يزيد، وكان تقيا ورعا يرى ما يرى من بشاعة هذا الجرم فيبكى.. فيسأله يزيد ماذا يبكيه فيقول له:

والله لا أبكى أسى على ما فات، وإنما أبكى جزعا على ما هو آت!!

ويروى الرواة أن أم المؤمنين أم سلمة هى أول من علمت مقتل الحسين، واختلفت الروايات فى ذلك، فمن قائل أنها شاهدت النبى عليه الصلاة والسلام فى رؤيا لها، وكان على لحيته التراب، وعندما سألته عما حدث قال لها:

كنت أدفن ابنى الحسين.

فعرفت أن الحسين قد قتل.

وهناك رواية أخرى تقول أن النبى فى حياته كان قد أعطاها قارورة بها تراب وقال لها: إذا استحال هذا التراب دما فاعلمى أن الحسين قد قتل!

مهما يكن من شئ فقد قتل الحسين مظلوما.. ولم يراعوا فيه حرمة، ولكن استشهاده كانت صيحة مدوية فى مختلف أرجاء العالم العربى..

هناك من طالب بدم الإمام الشهيد . .

وهناك من ثار على بنى أمية إلى أن انتهت نهاية دولتهم نهاية مأساوية رهيبة .

وهناك من تشفع لآل البيت، إلى أن ظهرت الدولة الفاطمية فى المغرب العربى وفى مصر . . وظهرت الانقسامات حول من يكون له حق الحكم . . إلى أن خلفت الدولة الأموية الدولة العباسية وأخذ التاريخ مسارات جديدة . .

وسوف نفرد الفصل الأخير لتداعيات هذه المأساة .

ولكن السؤال الذى يفرض نفسه، أين ذهبت رأس الحسين، وكيف جاءت إلى القاهرة؟! على أساس أنه لا خلاف بين المؤرخين والرواة أن الجسد الشريف قد دفن فى مكانه فى كربلاء فى مشهده المعروف هناك!

ولكن الخلاف حول مكان الرأس .

فهناك من قال أن الرأس قد دفنت مع جسد الإمام الحسين بعد فترة من الزمن .

وهناك من قال أن الرأس بعث بها إلى المدينة حيث دفنت بالبقيع بجانب أمة فاطمة الزهراء .

وهناك من يقول أن الرأس وجدت فى خزانة ليزيد بعد وفاته فاخذت الرأس ودفنت فى دمشق .

وهناك من يقول أنها دفنت فى عسقلان بعد أن طافوا بالرأس الشريف فى مختلف الأنحاء .

يقول الشعرانى :

«إن الوزير صالح بن طلائع بن زريك خرج هو وعسكره حفاة إلى الصالحية، فتلقى الرأس الشريف ووضعه فى كيس من الحرير الأخضر على كرسى من الأبنوس، وفرش تحته المسك والعنبر والطيب، ودفن فى المشهد الحسينى قريبا من خان الخليلى فى القبر المعروف»

ويقول بعض الرواه أن الذى وصل بالرأس من عسقلان، الأمير سيف المملكة واليها، وحصل فى القصر يوم الثلاثاء، العاشر من جمادى الأخرى وقالوا:

أن هذا الرأس الشريف لما أخرج من المشهد بعسقلان، وجد دمه لم يجف، وله ريح كريح المسك. . وعندما جئ به إلى مصر دفن فى قصر الزمرد، وهو المكان المعروف الآن بالمشهد الحسينى.

وقال ابن عبد الظاهر :

«مشهد الإمام الحسين، صلوات الله وسلامه عليه، قد ذكرنا أن طلائع بين زريك المنعوت بالصالح كان قد قصد نقل الرأس الشريف من عسقلان، لما خاف عليها من الفرنج، وبنى جامعه خارج باب زويلة ليدفنه به، ويلوذ بهذا الفخار، فغلبه أهل القصر على ذلك وقالوا : لا يكون ذلك إلا عندنا، فعمدوا إلى هذا المكان وبنوه

ونقلوا الرخام إليه وذلك على يد طلائع فى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة:

ويقول الأستاذ عباس العقاد: وهو يحدثنا عن الاختلاف حول مكان الرأس الشريف:

«..... فالأماكن التى ذكرت بهذا الصدد ست مدن هى: المدينة، وكربلاء، والرقة، ودمشق، وعسقلان ، والقاهرة.. وهى تدخل فى بلاد الحجاز والعراق والشام، وبيت المقدس والديار المصرية.. وتكاد تشتمل على مداخل العالم الإسلامى كله من وراء تلك الأقطار، فإن لم تكن هى الأماكن التى دفن فيها رأس الحسين فهى الأماكن التى تحيا به ذكراه لامراء.

وللتاريخ اختلافات كثيرة نسميها بالاختلافات اللفظية أو العرضية، لأن نتيجتها الجوهرية سواء بين جميع الأقوال.. ومنها الاختلاف على مدفن رأس الحسين عليه السلام، فأيا كان الموضع الذى دفن به ذلك الرأس الشريف، فهو فى كل موضع أهل للتعظيم والتشريف.. وإنما أصبح الحسين - بكرامة الشهادة وكرامة البطولة وكرامة الأسرة النبوية -معنى يحضره الرجل فى صدره وهو قريب أو بعيد من قبره.. وأن هذا المعنى لفى القاهرة، وفى عسقلان، وفى دمشق ، وفى الرقة، وفى كربلاء، وفى المدينة، وفى غير تلك الأماكن سواء».



(٧)
ما بعد أحداث كربلاء

أدمت أحداث كربلاء القلوب . .

وأحزنت الناس عندما سمعوا ما سمعوا من فعال لايمكن أن يأتى بها إنسان يؤمن بالله ورسوله، ويعرف قدر آل بيته عليه الصلاة والسلام ثم يقوم بما قام به هؤلاء من خسة منقطعة النظير.

فما حدث فى كربلاء لا يصدقه عقل، ولايجرى به خيال. . فلم يرحم القتلة شيخا ولاشابا ولا طفلاً، وعبثوا بكل القيم والمبادئ الفاضلة، وتدنوا فلم يحرصوا حتى على أبسط قواعد الشرف. .

وحتى بعد أن فعلوا فعلتهم، وأراقوا الدماء وسفكوها لم يراعوا حرمة نساء البيت النبوى الشريف، فساقوهم كالأسارى إلى بيت ابن زياد، ثم إلى بيت يزيد!

هل يمكن أن يكون هذا سلوك أناس يعرفون طعم الإيمان، وهل ذاق هؤلاء الإسلام وعرفوه!

وهل علموا أن لآل البيت الكريم حرمة؟

وهل عرفوا أنهم يصلون على هؤلاء الأبرار فى صلاتهم عند التشهد؟

هل غاب عنهم ذلك أم أنهم أصبحوا عبيد الدنيا. . عبيد المال، والبحث عن أدوار يلعبونها لدى السلطان، ونسوا أن كل هذا سوف يزول، فكيف يقابلون الله ويدهم ملطخة بدماء أبناء الرسول . . الشفيع الأعظم يوم الدين. . يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وكان من الطبيعى أن يكون لما وقع فى كربلاء من أحداث ردود فعل عاصفة . . حتى لو سكنت قليلاً بحكم البطش فالنار تحت الرماد، سرعان ما تشب وتشتعل الحرائق عندما تزكيها الرياح .

امتدت موجات الغضب . . فى الشام حيث الخلافة الأموية، وفى العراق حيث وقعت الأحداث المؤسفة، والحجاز حيث دفعت هذه الأحداث إلى أن يقوم عبد الله بن الزبير بثورته الذى استقل بها عن الخلافة فى دمشق، وخضعت له الحجاز والكوفة، وأصبح خطرا يهدد الدولة الأموية رغم أنها كانت فى عنفوان قوتها . ولم تكن ثورة عبد الله بن الزبير من أسبابها قتل الحسين، فلم يشارك فى هذه الثورة أحد من آل البيت، فقد كانت الجراح عميقة غائرة بعد أحداث كربلاء، ولم تكن دماء الشهداء قد جفت . . وأنهم لو اشتركوا فيها انتقاما للشهداء، لاستطاع الحكم الأموى القضاء التام على من بقى منهم، فآثروا الصمت وتركوا ما تأتى به الأيام .

ولكن مأساة كربلاء جعلت الناس فى الحجاز، والكوفة والبصرة متعاطفون مع عبد الله بن الزبير .

* * *

وما كادت الأنباء الحزينة تصل أصداؤها إلى مدينة الرسول، حتى خرجت نساء بنى هاشم ينعون الإمام الحسين، وكانوا فى رثائهم يرددون!

ماذا تقولون إذا قال الرسول لكم

ماذا فعلتم وأنتم سادة الأمم

بعترتى وبأهلى إذ تركتهم

منهم أسارى ومنهم ضرجوا بدم

ما كان هذا جزائى منكم أبدا

أن تخلفونى بظلم فى ذوى رحمى

لف مدينة الرسول أحزان كثيفة. . وعم الألم كل مكان فيها. . تلك المدينة التى استقبلت سيد الرسل عند هجرتها إليها بالغناء والترحيب به، حيث حلّ فيها وبحلوله بها ملأها أمنا ونورا وإيمانا، وها هى نفس المدينة تستقبل نساء البيت النبوى، وقد جئن بعد أن فقدوا أعز الأحباب، ومنهم من كان قطعة من رسول الله وهو الحسين، الذى قال فيه جده العظيم:

«أنا من حسين وحسين منى».

واستمع أهل المدينة لما روته السيدة زينب رضى الله عنها وكيف شاهدت مصرع أخيها وذوى رحمها، وكيف شاهدت قلوبا أشد من الحجارة قسوة، ونفوساً أشد ظلاما من الليل البهيم. .

وجاءت الأنباء إلى يزيد. . وكان لابد لها أن تأتى بأن المدينة تغلى بالأسى لما حدث فى كربلاء، وأن الناس روعهم ما جرى من أحداث وما كان يمكن حدوثها ولو بالخيال. . وإذا كان الحكم الأموى قد فعل فعلته تلك بأسرة النبى الذى يدينون بالدين الذى

جاء به، فكيف يعاملون بقية الرعية ممن ليس لهم هذا النسب الطاهر. . بل أن ما فعله الحكم الأموى بعيد كل البعد عن مبادئ الإسلام نفسه. . الإسلام الذى حرّم قتل النفس ، ونهى عن المثلة بالأعداء. . فكيف يحدث لآل البيت ما حدث ! .

وما كان من يزيد إلا أن أرسل إلى واليه فى المدينة ليخبر السيدة زينب أن تختار أى مكان تعيش فيه بقية عمرها، واختارت مصر، وعاشت بها حتى وافاها الأجل المحتوم .

ولكن الأمور لم تهدأ. .

وبدأت بوادر تغيرات تحدث على مسرح الحياة. . فإذا كان عبد الله بن الزبير الذى لم يبايع يزيد بالخلافة كان فى فترة وجود الحسين، لا يطلب لنفسه الخلافه، لأنه يرى أن الحسين هو الأحق، وهو الأكثر قبولاً عند الناس، وله من النسب الطاهر، والشخصية الآسرة ما يؤهله لذلك، فإنه قد آن له الأوان أن يطلب الخلافة لنفسه بعد استشهاد الإمام الحسين، وما ترك استشهاده فى النفوس من سخط عارم على بنى أمية ... وأخذ عبد الله بن الزبير يدعو لنفسه، ويدعو إلى مقاومة الحكم الأموى، وبايعته الحجاز، ومصر، وجزء من اليمن وحمص والبصرة الذى تولى عليها أخوه مصعب ابن الزبير. . و. . بدا أن ثورة ابن الزبير الذى اجتاحت كعاصفة قوية أركان الدولة الأموية، أنه لابد أن يحشد لها الحكم الأموى كل جهده، وإلا تهاوى الحكم الأموى من جذوره. . فيزيد يعلم ما

يتمتع به ابن الزبير من شجاعة القلب، ورجاحة العقل، ويعلم أن له تاريخا يؤهله لأن يلتف الناس حوله، فهو حفيد أبو بكر الصديق، وابن الزبير بن العوام، وأمه أسماء بنت أبى بكر الصديق صاحبة النطاقين . . وهو يعرف أن للرجل دوره عندما استطاع أن يهزم الرومان فى الشمال الأفريقى ويقتل قائدهم جيرى جورى أو جرجير كما كان تسميه العرب. . ويعرف أن عبد الله بن الزبير هو الذى كان يرد على والده معاوية ردا عنيفاً، عندما ذهب لأخذ البيعة ليزيد، وفى لحظة من لحظات الغضب التى انتابت معاوية، أخذته نعرة الجاهلية، فوجه نقدا حادا لعبد الله بن الزبير، وكان ذلك بحضور الحسين، فما كان من عبد الله ابن الزبير أن رد عليه ردا عنيفاً جريئاً شجاعاً.

قال له معاوية :

«أياك أن تقع فى عرانين عبد مناف، أما والله لئن دفعت فى بحور بنى هاشم وبنى عبد شمس لتغطنك بأمواجها ثم لتهوين بك فى أجاجها، ما بقاؤك فى البحور إذا دفعتك، والأمواج إذا غمرتك!

ورد عليه عبد الله بن الزبير بوسط جموع الناس:

أسألكم بالله أتعلمون أن أبى حوارى رسول الله، وأن أباه أبو سفيان.

وأن أمى أسماء بنت أبى بكر. . وأمه هند آكلة الأكباد، وجدى

الصديق وجده المشدوخ ببدر ورأس الكفر . . وعمتى خديجة ذات الخط ، وعمته أم جميل حمالة الحطب، وخالتى عائشة أم المؤمنين ، وأنا عبد الله وهو معاوية!

يزيد يعرف إذن من هو عبد الله بن الزبير ومدى خطورته على الدولة .

وعندما أرسل جيشا ليؤدب المدينة ويستبيحها . . يستبيح مدينة رسول الله! بقيادة مسلم بن عقبة المرى، ويتوجه بعد ذلك إلى مكة ولكن يواجه بقوة عبد الله بن الزبير ومقاومته الشديدة، فيكتفى مسلم بن عقبة بمحاصرة مكة، ويضرب الكعبة نفسها بالمنجنيق !!

وفى أثناء الحصار يموت يزيد بن معاوية، ويتخاذل جيش الشام، ويحقق ابن الزبير انتصارا، ولكن الصراع ظل على أشده إلى أن انتهت ثورة ابن الزبير على يد الحجاج بن يوسف الثقفى فى عهد عبد الملك بن مروان .

ولنعد إلى توالى الأحداث بعد مصرع الحسين مباشرة . . فنعرف أن الذين أطاحوا برأس الحسين، ومثلوا بجسده الطاهر، وطافوا برأسه ورءوس أصحابه بالكوفة لم يهدأ لهم بال، ولا طابت لهم الحياة بعد ذلك . . فقد عاشوا حياة قلقة مدمرة، قبل أن ينتقم الله منهم أشد انتقام .

وكان أول من نال الجزاء العادل شمر بن ذى الجوشن، رجس البشرية كلها .

لقد ذهب إلى عبيد الله بن زياد وهر يتيه زهوا بأنه هو السبب وراء قتل الحسين، وأنه هو الذى كان وراء اجتزاز رأسه الشريفة وفصلها عن جسده!!

ذهب إلى عبيد الله بكل هذا الزهو الكاذب، منتظراً المكافأة!

مكافأته عن فعلته الشنيعة وجرأته على الله ورسوله يوم فعل فعلته التى لا تغتفر..

ذهب إليه وهو يمنى نفسه بالمنصب والجاه والسلطان والذهب والفضة..

واستقبله ابن عبيد الله الذى تخيل هو الآخر أنه قد فر بجريمته وهرب من فعلته، وأنه سينال الحظوة عند الخليفة يزيد بن معاوية.

لقد دخل شمر بن ذى الجوشن، وهو يحمل رأس الإمام الحسين، ووضعها أمام الأمير وهو ينشد متباهيا:

املأ ركابى فضة وذهباً

فقد قتلت الملك المحجبا

ومن يصلى القبلتين فى الصباح

وخيرهم إذ يذكرون النسبا

قتلت خيرالناس أما وأبا..!!

ووقع رجس البشرية فى شر أعماله..

ها هو ينشد أمام أميره ويقر ويعترف بأنه قتل الإنسان الصالح

الذى يصلى خير صلاة، ويقوم خير قيام، وأنه من خير الناس نسبا، وخير الناس أما وأبا!

فماذا يكون جزاء من يفعل ذلك؟!

قال له ابن زياد:

إذا علمت ذلك فلم قتلته.. والله لا نلت منى خير ولألحقتك به.

وأمر عبيد الله أن تقطع رقبته، وأن تطأ الخيل صدره!!

يا الله..!

ويالحكمة الأقدار..

لقد قتل شمر بن ذى الجوشن بيد سيده الذى كان يطيعه طاعة عمياء قِتلة عنيفة.. وانتهى أمره..!

ولا يذكر اسمه إلا ويلعنه كل من يعرف الفضائل ويحتقر الذين يريدون الحياة الدنيا على حساب المبادئ والقيم، والنبل والأخلاق..

ولم تمضى سوى سنوات أربع على كربلاء.. حتى كان التاريخ يأخذ مسارا آخر.. فقد اندلعت فى الكوفة ثورة المختار بن عبيد الله.. الذى تزعم حركة التوابين التى كانت تنادى بالانتقام والأخذ بثأر الإمام الحسين.. وقد أرسل رسالة إلى التوابين يقول لهم فيها:

«أما ورب البحار والخيل والأشجار.. والمهامة القفار والملائكة الأبرار، والمصطفين الأخيار لأقتلن كل جبار بكل لدن خطار،

ومهند بتار فى جموع من الأنصار، ليسوا بميل أغمار، ولا بعزل أشرار، حتى إذا أقمت عمود الدين، ورأبت شعث صدع المسلمين، وشفيت غليل صدور المؤمنين، وأدركت بثأر النبيين، لم يكبر على زوال الدنيا ولم أحفل بالموت إذا أتى».

وقد استطاع هذا الرجل بالفعل عندما قام بثورة ضد الحكم الأموى، بعد موت يزيد الذى مات سنة ٦٥ هـ . . أن يتولى قيادة الثائرين من التوابين، الذين ينادون بالثأر لدم الحسين، استطاع أن يقضى على كل الذين اشتركوا فى هذه المأساة. . . ومن الذين قتلوا: عبيد الله بن زياد حاكم الكوفة الذى خطط لقتل الإمام، وعمر بن سعد الذى قاد الجيش الذى فتك بالبيت النبوى رغبة لأن يصل إلى حكم الرى.

والحصين بن نمير، وخولى بن يزيد. . . و كل الذين ساهموا فى مأساة كربلاء. !

و ما أكثر العظات التى يمكن أن نستفيدها من دروس التاريخ. !

ولعل الصورة التى ترسمها كتب التراث لهذه الأحداث هى التى تجعلنا نقف متأملين هذ الصورة، ومفكرين فى نفس الوقت فى مغزى هذه الأحداث. . فهذه الأحداث تجعل أكثر من علامة استفهام تقفز فى الذهن باحثة عن جواب!

أخرج مروان بن معاوية الفزارى، عن محمد بن عبد الرحمن عن أبى مسلم النخعى قال:

رأيت رأس الحسين جئ به فوضع فى دار الإمارة بالكوفة بين يدى عبيد الله بن زياد . .

ثم رأيت رأس عبيد الله بن زياد قد جئ فوضع فى ذلك الموضع بين يدى المختار .

ثم رأيت رأس مصعب بن الزبير قد جئ فوضع فى ذلك الموضع بين يدى عبد الملك .

فدخلت على عبد الملك بن مروان، فرأى عبد الملك منى اضطرابا فسألنى :

فقلت :

يا أمير المؤمنين . . دخلت هذه الدار فرأيت رأس الحسين بين يدى زياد فى هذا الموضع .

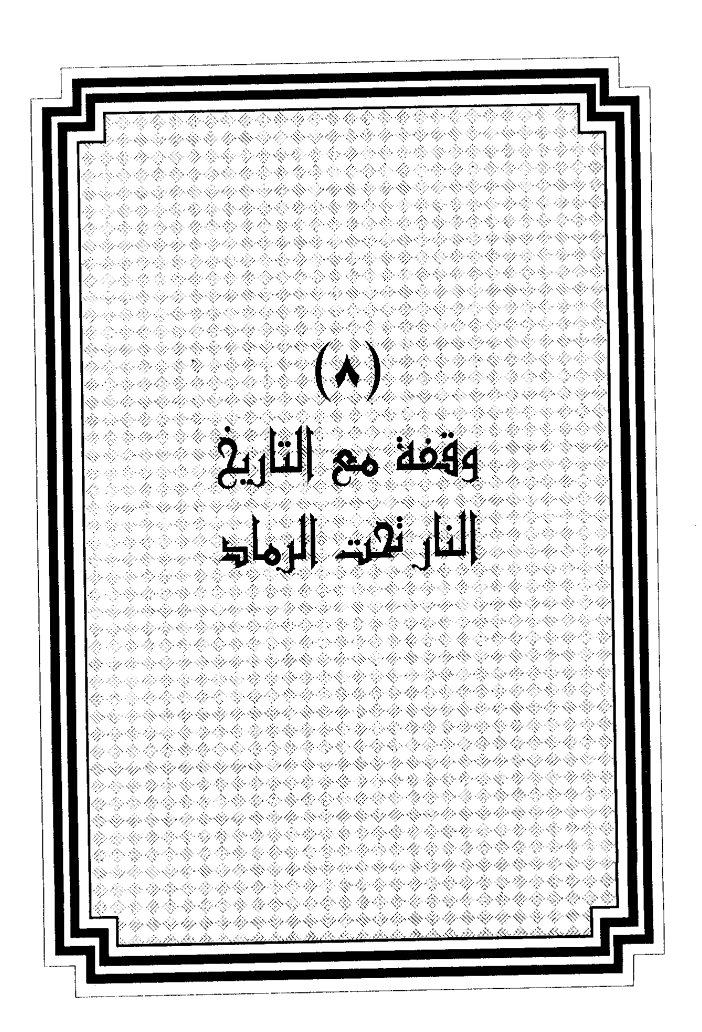
ثم دخلتها فرأيت رأس ابن زياد بين يدى المختار فيه!

ثم دخلتها فرأيت رأس المختار بين يدى مصعب بن الزبير .

وهذا رأس مصعب بن الزبير بين يديك!!

فوقاك الله يا أمير المؤمنين

فوثب عبد الملك بن مروان وأمر بهدم الطاق الذى على المجلس»



(٨)

وقفة مع التاريخ

النار تحت الرماد

المتابع لأحدث التاريخ الإسلامى، لابد أن يتوقف عند الفواجع التى بُلى بها المسلمين، وكان السبب دائما يرجع إلى مشكلة الخلافة.

فلم تكن «كربلاء» وحدها هى المأساة التى هزت أعماق الأمة الإسلامية، ولكن كانت مشكلة الخلافة هى السبب وراء كل المشاكل والأحداث الدامية التى مرت بالأمة الإسلامية عبر عصورها المختلفة.

فلقد رحل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أكرم جوار ولم يعين خليفة له، وإن كان قد أمر أبا بكر الصديق أن ينوب عنه فى الصلاة أثناء مرضه..

وكان أبو بكر رجلاً حاذقا تقيا.. كما كان له سابقته فى الإسلام فهو أول من آمن بالرسول الكريم، وهو الذى لازمه طوال جهاده الطويل.

ولقد أيقن الكثيرون أن أمر النبى لأبى بكر بإمامة الناس بمثابة الموافقة على خلافته فى رئاسة الدولة الإسلامية.. وقد حدث بالفعل عندما رحل الرسول الكريم إلى الملأ الأعلى أن اختلف الأنصار والمهاجرون.

الأنصار يرون أنهم أحق بالخلافة لأنهم هم الذين استقبلوا الرسول عليه الصلاة والسلام فى مدينتهم، وجاهدوا معه، وانتصر بهم فى المعارك التى خاضها ضد كفار مكة حتى دخلت شبه الجزيرة كلها فى الإسلام.

والمهاجرون يرون أنهم أحق بالأمر لأنهم أهل الرسول، وأول من آمن به، وجاهد معه، وصابروا وصبروا على ما حاكه المشركون لهم من دسائس. . وكادت أن تصبح فتنة.

والرسول العظيم مازال فى بيته لم يدفن بعد. . واستطاع الصديق وعمر بن الخطاب أن يحسما الأمر عندما اجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة لمبايعة سعد بن أبى عبادة. . وكان مما قاله سعد مخاطبا الأنصار:

«فكنتم أشد الناس على من تخلف عنه منكم، وأثقله على عدوه من غيركم. . حتى أنجز الله لنبيكم الوعد، ودانت لأسيافكم العرب. . ثم توفاه الله تعالى وهو عنكم راض، وبكم قرير عين».

وبعد أن حثهم على أن يكون الأمر فيهم قال:

«فشدوا بأيديكم بهذا الأمر فإنكم أحق الناس وأولاهم به».

ولكن أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح يسارعون إلى السقيفة، فى محاولة لرأب الصدع الذى يوشك أن يحول المسلمين إلى فئتين متصارعتين . . المهاجرون من جهة، والأنصار من جهة آخرى. ويقول لهم الصديق فيما قال:

نحن - المهاجرين - أول الناس إسلاما، وأكرمهم أحسابا، وأوسطهم دارا، وأحسنهم وجوها، وأكثرهم ولادة فى العرب، وأمسهم رحما برسول الله. . وأما العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش.

واستطاع الصديق وعمر وأبو عبيدة، أن يحولوا الأمر ويرجحوا كفة قريش، وبايع عمر الصديق، وكذلك أبو عبيدة الجراح، وبايع الناس.

ومن جهة أخرى من جوانب الصورة. . كان الإمام عليٌّ يرى أنه هو الأحق بالخلافة، ولكنه عندما علم بما حدث من أحداث فى السقيفة، آثر ألا يشق عصا الجماعة، وإن كان فى أعماق نفسه يرى أنه هو الأحق بالأمر، وإن لم يسرع إلى السقيفة، لأنه كان مشغولاً بجهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد عرض عليه أبو سفيان بن حرب أمر الخلافة، وأنه سوف يبايعه بها، ولكن الإمام كان يعرف أن أبا سفيان يكيد للإسلام والمسلمين، ويريد أن يحدث فرقة بينهم وصراع لا أحد يعرف ما سيسفر عنه!

وهناك روايات كثيرة ترويها كتب التاريخ عن أحداث السقيفة، ومن هذه الروايات أن الإمام عليٍّ سأل :

وماذا قالت قريش؟

قالوا:

احتجت بأنها شجرة الرسول.

فرد الإمام معلقا:

احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة!

وتروى رواية من الروايات أيضا . . أنه عندما بويع الصديق وتعاتب بعض الأنصار والمهاجرين، وكلٌ يدعم حجته بأنه هو الأولى بالخلافة . . أن عبد الرحمن بن عوف قال:

- يامعشر الأنصار إنكم وإن كنتم أولى فضل ونصر وسابقة فإنه ليس فيكم مثل أبى بكر، ولا عمر، ولا علىٍّ، ولا أبى عبيدة».

وقال زيد بن أرقم:

«إنا لا ننكر فضل من ذكرت يا عبد الرحمن، وإن منا لسيد الأنصار سعد بن عبادة.

ومنا من أمر الله رسوله أن يقرئه القرآن ويأخذ عنه السلام: أبى بن كعب

ومنا من يجئ يوم القيامة إمام العلماء: معاذ بن جبل.

ومنا من أمضى رسول الله شهادته بشهادة رجلين: خزيمة بن ثابت.

وإنا لنعلم أن ممن سميت من قريش من إذا طلب هذا الأمر لم ينازعه فيه أحد: علىٍّ بن أبى طالب.

وتروى أحدى الروايات أن فاطمة الزهراء حين عاتبت الأنصار عما فعلوا يوم السقيفة وتجاهلهم أمر زوجها علىٍّ بن أبى طالب قالوا لها:

يا بنت رسول الله. لقد مضت بيعتنا للرجل، ولو أن زوجك سبق إلينا قبل أبى بكر لما عدلنا به.

وقال الإمام معللا عدم ذهابه إلى السقيفة:

أكنت أدع رسول الله فى بيته لم أدفنه، ثم أخرج أنازع الناس سلطانه.

وكان رأى فاطمة:

ماصنع والله أبو الحسن إلا ما كان ينبغى له.. ولقد صنعوا ما الله حسيبهم عليه.

ولكن الأمور وقد سارت إلى ما صارت إليه، وتولى الخلافة الصدّيق، صديق رسول الله ، وثانى اثنين إذ هما فى الغار، وما للرجل من مآثر يعرفها كل من لا يريد أن يبتعد عن الحقيقة، وكان مثلا للخلق الرفيع، والإيثار الجميل، والحرص على شئون المسلمين.. فقد آثر الإمام ألا يجعل للفتنه مكانا فى المجتمع الإسلامى الذى أقام دعائمه النبى الخاتم عليه الصلاة والسلام.

فلم يسمع علىٌّ بن أبى طالب لتأليب أبو سفيان بن حرب له.. الذى قال له ذات مرة:

أغلبكم على هذا الأمر أذل بيت فى قريش وأقلها.. أما والله لئن شئت لأملأنها على أبى فصيل خيلاً ورجالاً، ولأسدنها عليه من أقطارها..!

فقال له علىٌّ:

إنك ما أردت بهذا إلا الفتنة، وإنك والله طالما بغيت للإسلام شراً.

المهم أن الإمام بايع أبو بكر حتى لا يترك ثغرة تتسلل إليها الفتنة.

وقد اختلف المؤرخون هل بايعه على الفور، أم بايعه بعد فترة من الزمن ، أم بايعه عند رحيل زوجته فاطمة الزهراء. ؟

مهما يكن من أمر فقد بايع عليٍّ بن أبى طالب الصدّيق. .

وكانت أيام الصديق تحتاج إلى رجل فى ذكاء وحكمة وتقوى أبو بكر. . فقد حدثت أحداث جسام عقب وفاة الرسول.

هناك من ارتد عن الإسلام. !

وهناك من منع الزكاة!

وهناك من ادعى النبوة!

وكان أيضا هناك ما عزمه النبى عليه الصلاة والسلام قبل وفاته من غزو الروم عندما أعد حملة بقيادة أسامة بن زيد واستطاع أبو بكر بعزيمته وإيمانه القوى أن يجابه كل القوى، وأن ينتصر فى كل هذه الجبهات، ويبنى الدولة الإسلامية القوية !

وجاء عمر بن الخطاب خليفة بعده، وقد أوصى بذلك أبو بكر، فبايع الناس عمر. . حيث استطاع أن يهزم دولة الفرس، وتدخل جيوشه الظافرة المدائن عاصمة كسرى، وحيث استطاع أن يقهر الرومان، وينزع من امبراطوريتها الشام وفلسطين ومصر، وحيث أقام دولة إسلامية مهابة الجانب والسلطان، بل أصبحت أقوى دولة

على الأرض فى زمانها. . دولة تتطلع إلى الشمال الأفريقى كله، وترنو ببصرها حتى حدود الصين!

ويقابل الخليفة القوى ربه، بعد مؤامرة المجوس عليه عندما طعنه أبو لؤلؤه وهو فى صلاته. .

وقد طلب عمر بن الخطاب وهو فى نهاية أيامه أن يحصر الخلافة بين ستة من أصحابه وهم: عبد الرحمن بن عوف، سعد بن أبى وقاص، الزبير بن العوام، طلحة بن عبيد الله، عثمان بن عفان، علىٍّ بن أبى طالب.

وأختار الناس عثمان رضى الله عنه.

وقد استقبل الناس حكم عثمان استقبالا حسنا، فقد كان تقيا ورعا، إلا أنه بعد فترة من الحكم بدأ بنو أمية يستأثرون بالأمر، وقامت الفتنة الكبرى التى انتهت باغتيال عثمان رضى الله عنه.

وقد عبر عثمان رضى الله عنه عن الفرق بينه وبين عمر بقوله:

إن عمر اشتد عليهم فخافوه، حتى لو أدخلهم فى جحر ضب.

وأنا لنت لهم حتى أصبحت أخشاهم!

وقد عبر جلال الدين السيوطى عن الأحداث التى تسببت فى قتل عثمان بقوله:

قتل عثمان مظلوماً. .

ومن قتله كان ظالما. .

ومن خذله كان معذوراً . !

وفى ظل الثورة العارمة التى قامت ضد حكم عثمان، وفى ظل القوى التى جاءت من مختلف أنحاء العالم الإسلامى لتقوض نظام الحكم، بويع علىٌ بن أبى طالب خليفة للمسلمين، ولكن الأمر لم يكن سهلاً ولا ميسوراً!

كانت النار تحت الرماد.

فقد ناصبة معاوية بن أبى سفيان العداء . وكان معاوية حاكما على الشام منذ خلافة عمر بن الخطاب، فقويت شوكته فى هذه البلاد. . وكان حاكما قويا . . وقد رفض أن يترك الحكم عندما عزله الإمام علىٌ ، وأخذ من دم عثمان ذريعة ليقاوم بها الإمام، وهو يتطلع إلى الخلافة نفسها .

وكان ما كان من صراع دام عنيفًا بين علىٍ ومعاوية . . وظهر خلال ذلك فرق الخوارج التى خرجت على علىٍ ومعاوية.

وقضى الإمام علىٌ أيامه كلها فى حرب أهلية مع معاوية والخارجين عليه من الخوارج، إلى أن اغتيل على يد عبد الرحمن بن ملجم. . ! بينما نجا معاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص من المؤامرة التى حاكها الخوارج لاغتيالهما. . و. . انفرد معاوية بالحكم. . بعد أن تنازل الحسن بن علىٍ لمعاوية بالخلافة على أن يكون الأمر شورى بعد وفاته!

ولكن الحسن مات. . وقيل مات مسموما بمؤامرة من معاوية. . !

ولكن الصراع لم ينته . .

فقد تصدى الإمام الحسين ليزيد بن معاوية، ولكنه استشهد فى «كربلاء» بعد أن تخلى عنه من طالبوه بالذهاب إلى الكوفة لمبايعته، ولما ذهب ارتعدت أوصالهم من حكام بنو أمية، وباعوا الحسين بعد أن تنكرو لوعودهم ومواثيقهم ورسلهم الذين أرسلوا للحسين فى مكة . . هربا بجلودهم ونجاه بأنفسهم !

فالخلافة . . والحرص عليها . . كانت من أهم أسباب الانقسامات والخلافات التى حدثت بين المسلمين . . ويؤكد ذلك ما تؤكده المصادر التاريخية، فى هذا الحوار الذى دار بين الإمام وابنه الحسن، فقد قال الحسن لأبيه وهو فى طريقه من الكوفة إلى البصرة بما يشبه العتاب :

لقد أمرتك فعصيتنى .

فقال له علىٌّ :

ما الذى أمرتنى به فعصيتك؟

فقال الحسن :

أمرتك يوم أحيط بعثمان أن نخرج من المدينة فيقتل ولسنا بها .

ثم أمرتك يوم قتل ألاَّ تبايع حتى تأتيك وفود العرب وبيعة أهل كل مصر . . فانهم لن يقطعوا أمرا دونك فأبيت على .

وأمرتك حين خرجت هذه المرأة وهذان الرجلان أن تجلس فى

بيتك حتى يصطلحوا . . فإن كان الفساد كان على يد غيرك . فعصيتنى فى ذلك كله .

فقال عليٌّ :

أى بنى : أما قولك لوخرجت من المدينة حين أحيط بعثمان فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به . .

وأما قولك لاتبايع حتى يبايع أهل الأنصار ، فإن الأمر أمر أهل المدينة ، وكرهنا أن يضيع هذا الأمر .

ولقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أرى أحدا أحق بهذا الأمر منى . فبايع الناس أبا بكر فبايعته ، ثم إن أبا بكر انتقل إلى رحمة الله وما أرى أحد أحق بهذا الأمر منى فبايع الناس عمر فبايعته ، ثم إن عمرا انتقل إلى رحمة الله وما أرى أحدا أحق بهذا الأمر منى فجعلنى سهما من ستة أسهم فبايع الناس عثمان فبايعته .

ثم سار الناس إلى عثمان فقتلوه وبايعونى طائعين غير مكرهين ، فأنا مقاتل من خالفنى بمن أطاعنى حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .

وأما قولك أن أجلس فى بيتى حين خرج طلحة والزبير فكيف لى بما قد لزمنى . أو من تريدنى أن أكون . . أتريدنى كالضبع التى يحاط بها ويقال ليست ها هنا حتى يحل عرقوبها حتى يخرج . وإذا لم أنظر فيما يلزمنى من هذا الأمر ويعنينى فمن ينظر فيه؟

فكف عنك يا بنى . »

ومن هذا الحوار يتضح كم كان الإمام حريصا أن يتولى الخلافة بعد وفاة الرسول، ولكن الظروف لم تواتيه إلا بعد مقتل عثمان رضى الله عنه، ويتضح من هذا الحوار أيضا مدى حرص ابنه الحسن على السلام، لأنه لم يكن رجل حرب وقتال، ومن هنا فقد كف عن القتال عقب استشهاد والده . . تاركا الأمر لمعاوية. . مؤثرا السلامة. . ومؤثرا السلام. . ومؤثرا أن تتوحد كافة الأمة ولا تتفرق. . حتى لو كانت هذه الوحدة فى يد بنى أمية، الذين طالما نازعوا بنى هاشم الخصام، وطالما نافسوهم فى الجاهلية. . حتى إذا ما ظهر الإسلام، وقضى على العصبيات، ودعى إلى الأخوة الإسلامية، ونبذ أحقاد الجاهلية، ونبذ غرورها وصلفها بالحسب والنسب والبحث عن الشهرة والحياة والنفوذ، عادت كل هذه العادات التى نبذها الإسلام من جديد. . عندما أقبلت الدنيا. . وأقبل الناس عليها. . وامتلأت خزائن الدولة بالأموال . . ورغب الناس فى متع الدنيا. . ومتع الدنيا هذه يملكها معاوية لا علىٌّ. .

معاوية يغرى الناس بالمال والحياة والسلطان إذا اقتربوا منه.

وعلىٌّ يطلب من الناس أن يعودوا إلى سمو الإسلام وقيمه ومبادئه وأخلاقياته . . كما حرص عليها النبى عليه الصلاة والسلام وخلفاؤه الراشدون!

تلك الخلافة التى استمرت قرابة ثلاثين عاماً إلى أن انتقلت إلى الأمويين فتحولت إلى ملك عضوض. . ملك متوارث. . فالبيعة صورية. . إذا لم تكن بالاختيار فبالقوة والعنف.

والخلافة كما يقول عبد الوهاب النجار فى كتابه عن الخلفاء الراشدين، مستعينا برأى الخضرى: أن أول ما كان لهم من مظاهر المدينة تأسيس (الخلافة الإسلامية) وكان الرئيس يسمى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما جاء ثانى الخلفاء اختار لقب أمير المؤمنين، ثم لم يزل لقبا لجميع من أتى بعده من الخلفاء.

وهذه الخلافة رياسة دنيوية أسسها الدين، وغايتها حمل الناس على ما فيه صلاحهم، متبعا الخليفة فى ذلك نصوص الكتاب وما عرف من سنة رسول الله ﷺ.

فالخليفة واجب الطاعة فيما يأمر مالم يخالف النصوص أو الشريعة الإسلامية. وكان أساس التشريع فى زمنهم هو القرآن والسنة المعروفة، فإن عرض لهم ما ليس فيهما عرفوا الأشباه والأمثال وقاسوا مالا نص فيه على ما فيه نص لما بينهما من التشابه.

وكان الخليفة فى الاجتهاد والاستنباط كأحد المجتهدين يستفتيهم فيما نزل به من الحوادث فيجيبونه بما عندهم، فإن اتفقوا فى الفتوى كان من المحتم عليه أن يتبع رأيهم، وهذا مايسمى فى عرف المسلمين بالإجماع، وإن اختلفوا فى الفتيا عمل الخليفة بما يرى من أرائهم، فلم يكن له سلطان دينى أكثر من أنه منفذ لأحكام الدين، فليست الخلافة سلطانا دينيا كما يزعمون ، وإنما هى سلطان أساسه الدين.

ولم يكن فى تلك الدولة للخلافة أسرة معينة، بل يختار الخليفة من أى أسرة من أسر قريش، والخلفاء الأربعة من ثلاث أسر:

أبو بكر من بنى تيم

وعمر من بنى عدى

وعثمان وعلىٍّ من بنى عبد مناف.

وكان أساس الانتخاب الشورى.

فالخلافة من جهة كونها لا تتعين لها أسرة وصاحبها يتعين بالانتخاب ومقيد فيما يعمل بالقانون الشرعى تشبه رياسة الجمهورية.

وتمتاز الخلافة بأنها مختصة بالبيت القرشى.

وكانت الناس تتابع الخليفة على العمل بكتاب الله وسنة رسوله الله صلى الله عليه وسلم، وزادوا فى بيعة عثمان (وسيرة الشيخين أبى بكر وعمر) وحذفت هذه الزيادة فى بيعة علىٍّ لأنه كان أباها لما عرض عليه الأمر عبد الرحمن بن عوف.

وكان الخلفاء يستشيرون فيما يعرض لهم من الأمور، إلا أنهم لم يكونوا على درجة واحدة فى ذلك .

وكان أكثرهم اهتماماً بالشورى عمر بن الخطاب فإنه كان قلما يقدم على أمر إلا بعد أن يستشير ويمحص الآراء. وكانت له (شورى خاصة) من أعلام الصحابة ومشيختهم من المهاجرين والأنصار، ومشيخة قريش مثل عثمان بن عفان، والعباس بن عبد المطلب، وعبد الرحمن بن عوف، وعلىٍّ بن أبى طالب ومن ماثلهم.

وكان يلحق بهم عبد الله بن عباس لما يراه من فقهه وجوده رأيه.

(وشورى عامه) من كل من له رأى من المسلمين يعرض عليهم

الأمر فى المسجد بعد أن يدعو (الصلاة جامعة) فيقول كل مابدا له . . وربما استشار بعد ذلك خاصته.

وكان كثيرًا ما يرجع عن رأيه متى تبين له الحق، وناهيك برجل كان يقول :

«من رأى منكم فيَّ اعوجاجا فيلقومه».

ورجال الشورى كانوا مختارين من قبله، إلا أنه لم يكن أحد يمنع من إبداء رأيه مهما كان صاحب الرأى صغير القدر، لأن حياتهم كانت مبنية على المساواة والديمقراطية الصحيحة.

ولم يكن ينتقص هذ النظام البديع إلا شئ واحد وهو تعيين من لهم الصوت فى انتخاب الخلفاء فيما بينهم، وقد كان عدم هذا التعيين سببا من أسباب الفرقة بين عليٍّ ومعاوية. لأن (علياً) كان يرى أن هذا الحق لأهل المدينة وحدهم، لا يشركهم فى ذلك أهل الأمصار الأخر، فمتى بايع أهل المدينة لواحد تمت بيعته وليس لأحد منهم بعد ذلك اعتراض.

ومعاوية ومن معه من أهل الشام كانوا يرون غير ذلك. وأن البيعة لا تتم إلا برضا أهل الأمصار مع ما كان يدعيه سوى هذا، فكانت تلك الفرقة الهائلة، وتلتها الحرب العظيمة بين المسلمين.

ولم يكن للخلافة فى هذه الدولة شئ من شارات الملك ولا أبهته، بل كان الخليفة يسير فى طريقه وفى بيته كسائر الناس لا حاجب ولا حارس، والتلبية إذا طلب منه أمر أو أراده على شأن من الشئون.

وكان عمر يكره أن يكون لعماله حجاب، حتى أنه أرسل إلى سعد بن أبى وقاص من حرق باب دار الإمارة الذى حال بين العامة وبين رفع شكواهم إليه إلا بعد الاستئذان ، أ. هـ.

مهما يكن من شئ. . فإن السبب الرئيسى للأحداث والفتن بل والأفكار والآراء المختلفة التى اختلفت حول طريقة الحكم كالخوارج الذين نادوا بأن الحاكمية لله، كان السبب الرئيسى لكل هذا هو الاختلاف حول الخلافة وشروطها، ومن الذى يستحق الخلافة، ومن الذى لا يستحق، وهل هو القرب من البيت النبوى، أم أن يكون من قريش، أو أن يكون أى إنسان من أى قطر مادام مؤمنا وتنطبق عليه شروط الإمامة.

بل إن الأمور تفاقمت بعد ذلك، وظهرت مذاهب غريبة تدعوا إلى أشياء لا يقرها الإسلام لا من قريب ولا من بعيد كالحلولية، وبعض الذين ألّهُوا الإمام علىٍّ، وقد حاربهم الإمام علىٌّ بنفسه عندما سمع ذلك.

ولكن مثل هذه الدعاوى كانت تنتشر مع انتشار الفتن والأطماع السياسية، وأهواء الحكم، فانقسم المسلمون شيعا وأحزابا، وسادت الفرق والمذاهب المختلفة. . . وزاد ذلك عندما تحول الحكم إلى ملك عضوض على يد بنى أمية، يأخذ أحدهم البيعة لولده ولو بالقوة والإكراه، وساد هذا المنطق فأصبح الحكم الوراثى شيئاً طبيعيا. . ومع سيادة الحكم الفردى الوراثى أصبح التسلط سمة من سمات

الحكم، ولم تعد للشورى التى نادى بها الإسلام، وعمل بها الراشدون من الخلفاء موضعا فى عرف حكام بنى أمية، وبنى العباس الذين انتزعوا الحكم منهم.. لأنهم هم الآخرون توارثوا الملك، ولم يأبهوا بالشورى، وإذا كان أحدهم يستشير هذا أو ذاك من ذوى الرأى فى عصره فلم يكن ذلك أمراً ملزما، ولا قانونا مكتوبا، ولكن مجرد هوى من أهواء الحكام.

لقد تمكنت الدولة الأموية بعد استشهاد الحسين من السيطرة على زمام الأمور، وزادت قبضتهم بعد القضاء على ثورة عبد الله بن الزبير على يد الحجاج بن يوسف الثقفى فى زمن عبد الملك بن مروان.. وقد ساعدهم ذلك على التفرغ للفتوحات، فعادت الفتوحات الإسلامية إلى أوج تقدمها وازدهارها.

وامتدت الفتوحات فى عهدهم امتدادا هائلاً، فقد سيطروا على الشمال الأفريقى كله حتى وصلوا إلى المحيط الأطلنطى، وعبروا مضيق جبل طارق وضموا الأندلس (أسبانيا).. وبلغ من طموحات موسى بن نصير أنه كان يريد غزو أوربا.. والوصول إلى دمشق عاصمة الخلافة الأموية بعد أن يضم كل الأراضى الأوربية فى الجنوب حتى يصل إلى القسطنطينية عن طريق أوربا.. ولم يقف ضد هذا الطموح إلا الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك.. فقد خشى هذا الاتساع الكبير من جهة ، وكان يرى أنه يريد أن يضم إلى الإسلام بالإقناع والاقتناع من دخلوا تحت راية الإسلام، وليست

المشكلة مشكلة ضم أراضى جديده للإمبراطورية الإسلامية الشاسعة الأركان، والتى بدأت تمد نفوذها أيضا فى أسيا وصولا إلى الهند!.

وتصور معى هذه الصورة المشرقة التى وصلت إليها الحضارة الإسلامية التى أخذت تغزو القلوب والعقول، وتمد أضواؤها إلى كل مكان، لو كانت هذه الحضارة أخذت بمبدأ الشورى واختفت الحروب الأهلية التى أهدرت إمكانياتها، لملأ فراغ غيابها الأفكار والمذاهب البعيدة عن روح الإسلام وجوهره.

لقد سقطت دولة بنى أمية.. عندما أخذت الدعوة ضدهم تأخذ شكلاً جادا، حتى أن والى بنى أمية وقائد جيوشهم نصر بن سيار قد هاله أن يرى الكثرة الكاثرة من الناس تلتف حول أبى مسلم الخرسانى الذى يدعو للعباسيين، حتى أنه أرسل إلى الخليفة الأموى مروان بن محمد يقول له:

أرى بين الرماد وبيص نار
ويوشك أن يكون له ضرام
فإن النار بالعيدان تذكى
وإن الحرب مبدؤها الكلام
أقول من التعجب: ليت شعرى
أأيقاظ أمية أم نيام؟
فإن كانوا لحينهم نياما
فقل: قوموا فقد حان القيام!

وأرسل أيضا إلى يزيد بن عمرو بن هبيرة نائب العراق من قبل الأمويين، يحدثه فيها عن ثورة خراسان والخطر الداهم فيها على الدولة الأموية ، وقد هاله استفحال خطر أبى مسلم الخرسانى، ولعله يساعده فى القضاء على هذا الخطر، وقال مما قاله فى كتاب أرسله له هذه الأبيات:

أبلغ يزيد وخير القول أصدقه

وقـد تحققت ألا خـير فى الكـذب

بأن أرض خراسان رأيت بها

بيضا إذا أفرخت حدثت بالعجب

فراخ عاين إلا أنها كبرت

ولم يطرن، وقد سربلن بالزغب

فإن يطرن ولم يحتل لهن بها

يلـهبن نيـران حـرب أيمـا لهـب

وصدق حدس نصر بن سيار، فقد أتت ثورة خراسان بالعجب، وانتصرت ثورة أبو مسلم الخرسانى، وتولى الحكم العباسيين، الذين انتقموا انتقاما رهيبا من بنى أمية على يد أبو العباس السفاح. . !

ولم يسلم العلويين رغم قرابتهم للعباسيين من اضطهاد بنى عمومتهم. .و أخذ التاريخ مساره، ورأينا كيف كانت الدعوات السرية للعلويين المناهضين للعباسيين، حتى قامت لهم دولة فى

المغرب، والتى استولت على السلطة فى مصر فى عهد المعز لدين الله الفاطمى، والذى جاء بنفسه إلى مصر، وبنى القاهرة، وجعلها عاصمة لخلافة الفاطميين. . !

وهكذا نرى كيف أدى الصراع والخلافات حول الحكم، إلى صبغ التاريخ الإسلامى بصور متعددة، وارتبط فيه العنف والدم والضحايا والأفكار التى تدعم هذه المواقف السياسية حسب الحقب التاريخية الذى ينتصر فيه فريق على فريق، والذى يصبح المهزوم منتصرا، والمنتصر مهزوماً. . !

* * *

وتبقى كلمة

لانريد أن نقول كما قال الشاعر نزار قبانى وهو يتحدث عن العالم الإسلامى (بأن تاريخنا كله كربلاء) .

فالتاريخ الإسلامى فيه الكثير من صور الزهو والانتصارات. . وكان للعالم الإسلامى حضارته التى غزت القلوب والعقول، ومدت أضواء الحضارة الإسلامية إلى كل البقاع. . ويشهد بذلك المضمون من مؤرخى الغرب والذين لا ينكرون فضل العرب والإسلام على الحضارة العالمية.

ولكن فى بعض الأحيان لطخت ثوب العالم الإسلامى التى مزقت العالم الإسلامى وكان لها ضحاياها. . ومن ضحاياها الحسين بن علىٍّ، الذى نعرف فضله وحب الرسول العظيم عليه الصلاة والسلام له، وقد أحببت الحسين لحب الرسول له، ولمواقفه وبطولاته وشجاعته النادرة، وحرصه على مقاومة الطغيان حتى لو فقد فى سبيل مبدأه هذا حياته. . أو على حد تعبير الأستاذ عباس العقاد:

وقد ظفر التاريخ فى الصراع بين الحسين بن علىٍّ ويزيد بن معاوية بميزان من أصدق الموازين التى تتاح لتمحيص الجزاء الحق فى أعمال الشهداء وأصحاب الطمع والحيلة، فقلما تتاح فى أخبار الأمم شرقا وغربا عبرة كهذه العبرة بوضوح معالمها وأشواطها، وفى

تقابل النصر والهزيمة فيما بين الطوالع والخواتيم على اختلاف معارض النصر والهزيمة.

فيزيد فى كربلاء هو صاحب النصر المؤزر الذى لايشوبه خذلان.

وحسين فى ذلك اليوم هو المخذول الذى لم يطمع خاذله من وراء الظفر إلى مزيد.

ثم تنقلب الأية أيما انقلاب.

ويقوم الميزان، فلا يختلف عارفان بين كفة الرجحان وكفة الخسران.

ويقول الأستاذ العقاد أيضا:

ولكننا نكتف بحقيقة واحدة توجب الاعتبار بهذه الخصومة وحدها وتفردها بارزة مائلة للتأمل والتعقيب، وهى أن مسألة الحسين ويزيد وقد كانت صراعا بين خلقين خالدين، قد كانت جولة من جولات هذين الخلقين اللذين يتحاورا أحقابا غابرات ولا يزالان يتجاولان فيما يلى من الأحقاب، وقد أسفرا عن نتيجة فاصلة ينفرد لها مكان معروف بين سائر الجولات، وليست جولة منهن بأحق منها بالتعليق والتصديق.

ووجهتنا من هذه العبرة أن يعطى كل خلق من أخلاق العاملين حقه بمعيار لاغبن فيه.

ويقول العقاد أيضا:

«فإذا قيل أن معاوية قد عمل وقد أفلح بالحيلة والدهاء، فيزيد لم

يعمل ولم يفلح بحيلة ولا دهاء، ولكنه ورث المنافع التى يشترى بها الأيدى والسيوف، فجال بها جولة رابحة فى كفاح الضمائر والقلوب.

فينبغى ألا يربح بهذه الوسيلة، فأما وقد ربح.. فينبغى أن يقف به الربح عند ذاك، وينبغى للغدر الكاذب والثناء المأجور ألا يحسبا على الناس بحساب الغدر الصادق والثناء الجميل».

مهما يكن من شئ.. فقد جرت الأيام، ومضت الليالى، وانفضت الشئون.. وتبقى عظة التاريخ.

ويبقى الحديث عن القيم والمبادئ والأخلاقيات التى تظل مثالاً يرنو إليها الناس، حتى لو لم يحققوها..

ويظل البغض للمنافع الذائلة، والذين يتاجرون بكل شئ.. حتى على حساب دينهم من أجل دنيا فانية لا تدوم.. وتنتهى المصالح.. ولا تُخلّد الأيام إلا الذين عاشوا للمبادئ والقيم والأخلاق، ويهمل الزمن فى رمال النسيان من عاداهم.. من أصحاب المصالح العاجلة.. والأغراض الزائلة.

والظلم لايدوم.. فإن ميزان العدل إن مال فى الدنيا، فلن يميل عند الله.. يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

المراجـــع

* القرآن الكريم
* الأحاديث النبوية (الستة الصحاح)
* نهج البلاغة (للإمام علىٍّ بن أبى طالب ـ الشريف الرضى وشرح الإمام محمد عبده)
* أسد الغابة (ابن الأثير)
* معجم البلدان (ياقوت الحموى)
* وفيات الأعيان (لابن خلكان)
* مروج الذهب (للمسعودى)
* الأعلام (للزركلى)
* تاريخ الإسلام (للحافظ الذهبى)
* المعجم الكبير (الإمام الطبرانى)
* البداية والنهاية (لابن كثير)
* الخلفاء الراشدون (عبد الوهاب النجار)
* الحسين أبو الشهداء (عباس العقاد)
* فاطمة الزهراء والفاطميون (عباس العقاد)
* علىٍّ إمام المتقين (عبد الرحمن الشرقاوى)

* سيد الشهداء الإمام الحسين (موسى محمد على)
* أبناء الرسول فى كربلاء (خالد محمد خالد)
* الحرب الأهلية فى صدر الإسلام (عمر أبو النصر)
بين الإمام علىٍّ وخصوصه
* مع الأبطال (محمد رجب البيومى)
* الفتوحات الدينية الكبرى (لجلوب وترجمة خيرى حماد)
* قيام دولة (إبراهيم الإبيارى)
* أبو مسلم الخرسانى (محمد عبد الغنى حسن)

الفهـــرس

رقم الإيداع
٩٧/١٥٠٦٧
I.S.B.N.
977 - 294 - 047 - 7

طــبع آمـــون
٤ عطفة فيروز - متفرع من ش إسماعيل أباظة - لاظوغلى
تليفون: ٣٥٤٤٥١٧ - ٣٥٤٤٣٥٦